مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الأنبياءِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الأنبياء

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الأنبياء

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ ﴾

ابتدأت سورة الأنبياء بموعظة عظيمة، تستنهض وتستيقظ الإنسان من غفلته التي يعيشها، وقد اقترب أجله، واقترب الحساب والجزاء. لتعظه بمستقبله، وتنبهه وتوقظه من سبات غفلته، لتستثير فيه الصحوة بعد الغفلة، والانتباه بعد السهو، ليستعد ليوم الحساب. قال الله تبارك وتعالى ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ اقترب من الناس يوم الحساب الذي يُحاسَبُون فيه على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، وهو يوم القيامة الذي يُحشر الناس فيه ليوم المحشر، وتُوفَّى كل نفس بما تستحق، ومع هذا فإن الناس في غفلة عنه ﴿ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ والناس في سهو ولهو في الدنيا، غير متأهبين لما يجب عليهم من التأهب والاستعداد بالإيمان والانقياد لربهم تبارك وتعالى، وعما سيكون من الله تعالى ذلك اليوم لهم. بل إنهم في ذهول وانشغال عنه، فعقولهم منصرفة عما فيه صلاحهم ونجاتهم. بل إن كلمة ﴿ مُّعۡرِضُونَ ﴾ تفيد الامتناع والإباء بعد المعرفة، وهو شأن الكفار من الانصراف عن تأمل آيات الله تعالى، وما جاءهم من القرآن العظيم مع رسوله صلى الله عليه وسلم، وما معه من حجج الحق الواضحة البينة. فقد جمع هؤلاء بين الغفلة

التي هي الالتهاء الذي أشغلهم عن الحق، والإعراض الذي مفاده الامتناع عنوة عن قبول الحق المبين. بما يفيد انتفاء العذر منهم، وقيام الحجة عليهم.

ثم يؤكد ربنا تبارك وتعالى إعراضهم، وقيام الحجة عليهم، بأنه ما من شيء يتلى عليهم من كتابه القرآن العظيم، إلا كان سماعهم له سماع لَعِبٍ واستهزاء، غير ابهين به ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فما يأتيهم من تذكير يتجدد عليهم بتتابعه من آيات القرآن الكريم، ومواعظ خير المرسلين، إلا استمعوا له وهم في تلاعب بما سمعوه. وفي هذا بيان لموقف الغافلين المعرضين من مشركي مكة، ويدخل معهم كل من حذا حذوهم. فما يتجدد عليهم من التنزيل والتذكير من آيات الله تعالى إلا استمعوا إليه وهم في حالة من أحوال المتلاعب بما يسمع، واللاهي بلعبه عما يسمع من الحق. بما يفيد أنهم غير ابهين به، ولا مكترثين بما يسمعون من الحق. وقد سمى الله تبارك وتعالى آيته بالذكر ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ لأنها تُذكر الغافل والْمُعْرِض بالحق وما يجب عليه.

ومن جزالة السياق أن هذا البيان يخص المشركين بمكة، وذلك باعتبار ما ينزل على نبيه ذلك الوقت من تتابع آيات القرآن الكريم، ولكنه يشمل كل من صد عن القرآن إلى قيام الساعة باعتبار التنصيص على جنس الناس ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وباعتبار ما يتردد ويتتابع على المدعو من كلام رب العالمين، وأقوال نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالناس العموم، وقيل المشركون مطلقاً، وقيل كفار مكة[١] وهذه من بلاغة سياق القرآن الكريم في استيعابه للأوجه المقصودة. إذ يعالج القضية في حينها، ويمتد شمول معالجة النص لمن يستوفيهم من عيرهم. فإنها بلاغة إعجاز.

وجملة ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ تفيد تكرار التذكير بمواعظ القرآن وهديه وإرشاده، فهو تذكير مستمر ومتتابع، وغير منقطع. وهذا الذكر والتذكير من القرآن الكريم هو من ربهم الذي لا شك ولا ريب فيه، بل ومن صفات هذا الذكر أنه ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي: حديث النزول على النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: جديد إنزاله. كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه، وزادوا فيه، ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله[٢] فهو مُحْدَث باعتباره جديد النزول،

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٩٧/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨١/٣)

ومُحْدَث باعتباره أحدث الكتب بالله تعالى. ومع هذا ﴿ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ فمع جميع تلك الصفات الواضحات البينات القويات إلا أنهم يستمعون إليه وهم في حالة من الانشغال عنه، إذ يستمع أحدهم وهو منشغل بما يلعب فيه من لهوه ﴿ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ وفي هذا تأكيد لإعراضهم بصورة ثانية، بعد بيان صورته الأولى: بقوله تعالى ﴿ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ بما يفيد أنهم غير مهتمين بما يسمعون من كلام الله تعالى.

وسَمَّى الله تعالى ما يلتهون به من أمور الدنيا باللعب ﴿ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ لأن كل شيء مُشغل عن الأولى من النجاة من العذاب فهو لعب، فتشاغلوا عنه بما هو دونه من اللهو. بل ورد اللعب بصيغة الفعل المضارع، ليفيد استمرارهم عليه. ومن بلاغة البيان أن استوعبت دلالته أربعة أوجه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ومعنى يلعبون: أي: يلهون، وقيل: يشتغلون. فإن حُمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين: أحدهما: بلذاتهم. الثاني: بسماع ما يُتلى عليهم. وإن حُمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما بالدنيا، لأنها لعب. كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾ والثاني: يتشاغلون بالقدح فيه، والاعتراض عليه. قال الحسن: كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل. وقيل: يستمعون القرآن مستهزئين[١] وهذه الأوجه تشمل وتستوعب جميع الأحوال التي هم عليها في تعاملهم مع القرآن العظيم. فكان سياق البيان غاية في بلاغته التي استوعبت أحوالهم.

ثم يؤكد الله سبحانه وتعالى إعراضهم بصورة ثالثة ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾ فقلوبهم التي هي محل التدبر والتأمل والتفكر، لاهية وساهية ومنشغلة بلهو الدنيا ومفاتنها عن الحق ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ ﴾ فتحقق منهم الإعراض وعدم القبول لكلام الله تعالى. مما يدل على أنهم رجحوا ما هم فيه من الباطل على ما جاءهم من الحق، وانشغلوا به. وهذا يبين منزلة القلب في تعقل وتدبر الأشياء والأمور، وأن من صرف قلبه عن الحق انشغل بالباطل. ومن دقائق بيان حالهم أنهم يتخافتون بينهم استهزاء ومظنة السوء برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فالإسرار هو الكتمان، وهو خلاف الإعلان. والنجوى الكلام الخافت الخفي. وهو إخفاء الحديث الذي يتحدثون به، فإن هؤلاء المشركين الظالمين لأنفسهم قد أسروا وأخفوا عن غيرهم ما يتناجون به فيما بينهم من الكلام الخفي الذي يخفونه عن غيرهم، حتى لا يسمع استهزاءهم أحد من

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٧٨)

المسلمين، فأسروا وكتموا ما يتناجون به خفية بينهم. فمن شدة خوف شيوع كلامهم بين المسلمين ومعرفتهم لما يقولون، أنهم جمعوا بين الإسرار والنجوى في إخفاء كلامهم. وفي هذا ابراز وإظهار لشدة التخفي بما يقولون، فَجُمِع بين الإسرار والتخفي، لإفادة المبالغة في شدة حرصهم. فإن الإسرار هو الكتمان، وهو خلاف الإعلان. والنجوى الكلام الخافت الخفي. وهو إخفاء الحديث الذي يتحدثون به، سواء كان عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو كان عن عموم الصحابة أو بعضهم رضي الله عنهم.

فيقولون فيما يتخافتون به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

هل هذا الذي يتلو الذكر، ويعنون به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فما هو إلا بشر مثلكم. وبالتالي يستبعدون أن يكون نبياً، لأنه بشر مثلهم. فكيف يكون مخصوصاً بالنبوة والرسالة من بينهم. فهو سؤال استنكار وتعجب، لإضفاء الاستحسان على إعراضهم. فكيف تتبعونه وهو بشر مثلكم، مما يفيد أنهم يريدون رسولاً من غير جنس الإنسان. كما يفيد أن الْمُعْرِض عن الحق يبحث عما يُقْنِع به نفسه، حتى يحتال على ذاته، بينما في قرارة نفسه أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحق المبين، وأن جميع المرسلين للأمم من قبلهم هم من البشر.

ثم يُضِفُون على كذبتهم وعلتهم الأولى علة أخرى مركبة ومبنية على ما قبلها ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أتتأثرون بسحره، وأنتم تبصرون أنه ساحر؟ فهو سؤال استنكار، يحمل استثارة النفوس نحو العناد والإعراض عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعما يسمعون من كتاب الله تعالى. ومن شدة إعراضهم أنهم رفعوا من شأن أنفسهم، وأنهم متأكدون أن ما يقوله نوع من السحر ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أتقبلون السحر، وتبالغون في سماعه إلى درجة أنكم تأتونه وأنتم تعلمون يقيناً أنه سحر؟ وبالتالي هو ساحر. لأن كلمة ﴿تُبْصِرُونَ ﴾ تفيد المعاينة والتحقق، والمبالغة في المعرفة ودقة المعاينة والمشاهدة. أي أنكم متحققون بلا ريب ولا شك بأن متابعته كمتابعة السحر.

فأنتم كالمسحور الذي يتابع من سحره، فكأن قوة قوله صلى الله عليه وسلم كما يزعمون كقوة السحر. وفي هذا دلالة على قوة الحجة التي جاءتهم فألبسوها لباس السحر، كما أن في هذا قمة وقوة الإعراض التي وصفها سبحانه وتعالى بهم في أول السورة الكريمة ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ فإن في هذا الوصف والتجلية لحالهم، وتحليل ما تكن نفوسهم وعقولهم وقلوبهم ما يبين الإعجاز البلاغي والبياني لكتاب الله العزيز الحميد الذي صور حالهم وواقعهم كما كانوا عليه من حالة الإعراض وقوته،

وتشبثهم به، مع قوة التحايل، بتأويل قوة الحجة والبرهان بأنها قوة سحرية. وفي هذا دليل واعتراف منهم بقوة حجج الله تعالى، وأنها مقنعة بوضوحها وقوتها، فيتلاشون ويتلافون ذلك بوصفه ونعته بالسحر حتى تقبل نفوسهم ما أعرضت عنه من الحق الواضح المبين.

ويأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يجيب هؤلاء الصادين المكذبين على أقوالهم وافترائهم من الكفر بما أنزله الله تعالى عليه. ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى يعلم كل قول في ملكه، فيعلم ما في السماء والأرض، ومنه ما تسرون به من القول، فأخبرهم صلى الله عليه وسلم بما أوحاه وأطلعه عليه ربه تبارك وتعالى من شأنهم ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إن ربي سبحانه وتعالى يعلم القول: أي كل قول، سواء كان في السماء أو في الأرض، فلا يخفى عليه ما يُسِرُّه ويخفيه أحد من خلقه. بما يفيد قد علم الله تعالى قولكم، من القَدْحِ في رسوله وكتابه، وأنه أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم. وكيف لا يعلم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو السميع الذي لا يفوته كلام متكلم. وهو العليم الذي لا يفوته حدث في السماء والأرض إلا ويعلمه كما هو.

فإن ربكم هو السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم. بل أجابهم سبحانه بصيغة المبالغة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ التي تفيد المداومة والدوام الذي لا ينقطع، والتكرار والاستمرار الذي لا يتوقف ولا يشغله شيء عن شيء، فإنه لا يفوته شيء أبداً، لا صغير ولا خفي، فكل شيء مسموع ومعلوم عنده تبارك وتعالى. وبالتالي فإن تخفيتم عن الناس فإنكم لا تخفون على الله تعالى، فاعرفوه بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

ومن غزارة البيان تسمية القول على وجه العموم والإطلاق ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ ليشمل كل قول، فليس قولكم فقط، بل كل قول بلا استثناء، ليصبح قولهم بعضاً منه، ثم عمم سبحانه وتعالى الجهات التي يكون فيها القول، بجملة ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لتشمل الكون كله، فتشمل جميع ما خلق سبحانه وتعالى. فسبحان من لا تتداخل ولا تختلف عليه الأصوات.

ثم يبين تبارك وتعالى ما واجهه نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم من أقوال المكذبين الجاحدين للحق، فانتقل البيان الكريم من قولهم السابق بأنه بشر، وأنه ساحر إلى قول آخر من باطلهم ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ إن هؤلاء الكفرة الصادين عن دين الله تعالى لم يكتفوا بما قالوا في حقه صلى الله عليه وسلم: من أنه بشر، على صيغة امتناع النبوة والرسالة عنه، وأن ما جاء به هو نوع من السحر ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي: أخلاط، كالأحلام المختلطة،

وأهاويل رآها في المنام، بما يفيد أنه نوع من هذيان النائم. ثم عدلوا عن ذلك إلى قول آخر ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: قول مكذوب. مما يدل على نفيهم لما قالوا بأنه أضغاث أحلام، فعدلوا وانتقلوا إلى أنه قول مكذوب، قد اختلقه وافتراه من عنده، ولا حقيقة ولا صحة له. ثم عدلوا عن قولهم هذا إلى قول آخر ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ فاتهموا ما يتلوه صلى الله عليه وسلم عليهم من القرآن العظيم بأنه نوع من الشعر، وهنا عمدوا وانتقلوا إلى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر، وبالتالي فإن ما يتلوه عليهم من القرآن العظيم هو نوع من تراكيب كلام الشعراء. وحقيقة الأمر أن من له أدنى معرفة بالشعر يعرف أنه لا يمت إلى الشعر بصلة أبداً. ولَمَّا عرفوا أنه لا أحد يُقر لهم بما قالوا من تلك الأكاذيب والأراجيف الباطلة، عدلوا وانتقلوا إلى المطالبة بالمعجزات التي أنزلها الله تعالى على من سبق من المرسلين ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فحتى نصدقه على ما يقول، يلزمه أن يأتينا بآية كما أرسل بها من سبق من المرسلين، يعنون مثل: ناقة صالح عليه السلام، أو آيات موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام جميعاً. في حين أن أقوام تلك الرسل كذبوا بتلك الآيات. ثم إن الذي جاءهم به عليه الصلاة والسلام فيه قوة البيان الذي يعجزون أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله، وهم العرب الأقحاح الذين بلغوا ذروة الفصاحة والبلاغة. ولكنها سنن المكذبين. وكذلك من الآيات انشقاق القمر، وإخباره لهم صلى الله عليه وسلم بعيرهم عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ليتبين أن المعاند يتغافل عن الحق، ويحيد عنه، بما يُقنع به نفسه مما هو عليه من الفساد والكفر.

وفي هذا التدرج في الانتقال والعدول من قول إلى قول، ما يدل على حيرتهم، ويُثبت اختلافهم في توصيفه، فكلما وصفوه بوصف وجدوا أنه لا ينطبق عليه صلى الله عليه وسلم. فإن قالوا ساحر، فليس مضمونه إلا هُدَى، فكيف يكون سحراً؟ فلا أحد يصدقهم من العقلاء على فريتهم، فإن مضمونه مخالف للسحر تماماً. وإن قالوا ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ فأبعد ما تكون عن أضغاث الأحلام، لأن أضغاث الأحلام، كلام لا اتساق فيه، ولا مفهوم له، ولا فائدة منه. ولا يمكن أن يكون بهذه القوة من الاتساق والدقة والإعجاز، فاحتاروا في أمرهم. وإن قالوا ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فلا يمكن لأحد أن يصدقهم بأن هذا القول المسبوك المعجز يستطيع على مثله بشر. وإن قالوا ﴿شَاعِرٌ﴾ فلا يوافق عليه أحد من العرب، فضلاً عن أن يجدوا من يؤيدهم ممن يقرض الشعر. وهذا يدل على حيرتهم واختلافهم وتناقضهم مع أنفسهم في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من الحق، وهو القرآن الكريم. فتكون النتيجة أنهم في ضلال وعناد، وأنهم مُوقنون أن الذي جاءهم به صلى الله عليه وسلم هو من عند الله سبحانه وتعالى. فإن من تماديهم في العناد عندما عجزوا في الوصف والتهمة أن عدلوا وانتقلوا إلى طلب المعجزات، بما يفيد أنهم كَذَّبُوا أنفسهم، ونقضوا ما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك ما وصفوا به القرآن العظيم. لأن الذي جاءهم به قوة في البيان، يعجز أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله، بالرغم من أنهم هم العرب الأقحاح الذين بلغوا ذروة الفصاحة والبلاغة. ولكنها سنن المكذبين.

ثم يخبر الله تعالى بحال من سبقهم من الأمم الذين طلبوا الآيات من رُسُلِهم، ليكون ذلك إنذاراً وموعظة لهم من التمادي في غيهم وطغيانهم، ومشابهة غيرهم في كفرهم وعنادهم ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فالذين طلبوا الآيات من الأمم السابقة لم يؤمنوا بها لَمَّا جاءتهم الآيات، فجميع من أهلكناهم من الأمم قبل كفار مكة جحدوا بما جاءهم من الآيات العظيمة. فما آمن ممن هم قبل كفار مكة، ممن طلبوا الآيات لما جاءتهم وتحققت لهم، بل كذبوا بها، فأهلكناهم، فكان هلاكهم لكفرهم وجحودهم للآيات، ثم يتقرر سبحانه وتعالى قياساً على كثرة الأمم الكافرة بالآيات السابقة حقيقة أهل مكة ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ سؤال استنكار وتعجب، أفيؤمن أهل مكة فيما لو تحققت لهم مطالبهم. وهو سؤال استنكار ونفي واستبعاد بأن يحصل منهم الإيمان وقد كفروا بما جاءهم من الآيات التي أنزلناها الله عَزَّ وجل على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. فما مثلهم إلا كمثل من سبقهم من الأمم المكذبة. فالذي لم يؤمن بالقرآن الكريم، المعجز في بيانه وخطابه، وتشريعه وأمره ونهيه، فلن يؤمن بغيره من الآيات، فهو أعظم الآيات الثابتة المستمرة مع البشرية، والتي من إعجازها استمرارها مدى الحياة البشرية. فثبات القرآن العظيم آية، كما أن صلاحه لكل زمان ومكان آية.

ثم يخبر ربنا تبارك وتعالى عن حكمته وسنته في إرسال الرسل ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فمن دلائل نبوتك أيها النبي أنه ما أرسلنا قبلك فيمن سبق من الأمم إلا رجالاً فقط، فنوحي إليهم بمثل ما أوحينا إليك. فكيف يطلبون ما يخالف ما يعرفونه من السنن في إرسال المرسلين. وفي هذا المزيد من الاستنكار على قولهم الموضح والكاشف لافترائهم فيما يطلبون، إذ قالوا بما قاله الله تعالى عن قولهم ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ فلم نرسل قبل ذلك ملائكة، وعليكم أن تسالوا أهل الكتاب ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فاسألوا يا من كذبتم بنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، اسألوا أهل العلم بالكتب المنزلة السابقة إن كنتم تجهلون ذلك. إذ لو كان المرسلون من غير البشر لقال لكم أهل الكتب بذلك. ومن الحكمة في كون المرسلين من جنس البشر حتى يحصل التجانس بينهم وبين المرسلين. إذ لو كانت الرُّسُل من غير البشر لانعدم التجانس بينهم وبين المرسلين، فلكل جنس من مخلوقات الله تعالى روابط وتماثل، ونوع من التفاهم والتفاعل في التخاطب والتعامل. إضافة إلى أنه ليس لأحد من خلقه أن يطلب ويحدد ويفرض ما يريد، بل يجب على العبد الطاعة والامتثال لمولاه وربه وخالقه جَلَّ في علاه، مع ما زود نبيه صلى الله عليه وسلم من المعجزات، وأعظمها معجزة القرآن الكريم الباقية من غير تغيير إلى قيام الساعة، حين يرفع اللهُ تبارك وتعالى كتابه من الدنيا.

وجملة ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فإن المقصود بأهل الذكر هم أهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل، وتشمل كذلك أهل القرآن، الذين آمنوا به، وعرفوا وأيقنوا بما فيه من أحوال الأمم السابقة، وأنه ما أرسل الله تعالى فيهم إلا رُسُلاً منهم، ومن جنسهم. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: اسألوا أهل العلم من الأمم، كاليهود والنصارى، وسائر الطوائف. هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة، وإنما كانوا بشراً. وذلك من تمام نعمة الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلاً منهم، يمكنون من تناول البلاغ منهم، والأخذ عنهم[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم. قاله سفيان، وسماهم أهل الذكر، لأنهم يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب. وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن، أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن. وقال جابر الجعفي: لما نزلت هذه الآية، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نحن أهل الذكر[٢] ولا يمنع أن تشمل معاني ودلالات ما سبق: فاسألوا أهل القرآن، الذين هم المؤمنون، الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وإن أبيتم فاسألوا أهل الكتاب يخبرونكم بذلك. وتفيد هذه الآية الكريمة وجوب أن يسأل من لا يعرف أهل الفقه والعلم من المسلمين فيما يجهل، وألا يحتج بجهله، وأن الجهل لا تقوم به حجة طالما وُجِد من يرفع الجهل عن الجاهل.

ثم يبين الله تعالى المزيد عن حقائق من سبق من المرسلين ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ فلم يكن أولئك المرسلين خارجين عن طبائع جنس البشرية، فلم يكونوا أجساماً لا تأكل الطعام كما يأكل غيرهم. ولم يكونوا خالدين في الأرض لا يموتون، فلم يجعل لهم اللهُ سبحانه وتعالى الخلود في الدنيا، بل إنه يسري عليهم الموت كما بسري على جنسهم من بقية البشر، ويجري عليهم الأكل والنوم والجوع، والنكاح، وكل ما يسري على جنسهم من غيرهم من البشر.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما أنجزه للأنبياء السابقين من وعده الذي وعدهم به ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ فقد أنجزنا للأنبياء ولمن نشاء من أتباعهم المؤمنين ما وعدناهم به، من النصر والنجاة، وحسن العاقبة لهم ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ ﴾ فقد صدقناهم ما وعدناهم به، فأوفينا لهم الوعد الذي وعدناهم بنصرهم على من كفر بهم. وفي هذا بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه بالنصر على من عاداهم، ومن كفر. وكذلك من تمام النعمة على المرسلين ومن آمن معهم؛ أن أنجاهم تبارك وتعالى

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٢/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٠/١١)

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ أي: أنجينا المرسلين من العذاب الذي أصاب أقوامهم، ومنعنا عنهم شر وكيد الذين كذبوهم. وجَمَعَ معهم المؤمنين في النجاة ﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ أي: المؤمنين. ومن نشاء منكم وهم المؤمنون، ففيه تخصيص للمؤمنين عن عموم المدعوين. وكذلك أنجينا مع المرسلين المؤمنين الذين صدقوهم ﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ وهم أتباعهم من المؤمنين. ومن دقائق البيان أن جملة ﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ وردت بصيغة المستقبل، بينما هي معطوفة على التي قبلها، وهي بصيغة الماضي ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ ﴾ وذلك ليستوفي من سبق، وكذلك من تشملهم مشيئتنا من أتباع نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من المؤمنين. ليكون بمثابة الوعيد والتهديد، والترهيب لهم، بأنه قد يصيبكم العذاب، وننجي نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه من المؤمنين.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بهلاك الكافرين ﴿ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ وأهلك الله تعالى الكافرين، والمعاندين للمرسلين، الصادين عن دينه سبحانه وتعالى. وسماهم بالمسرفين ﴿ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ لأنهم أفرطوا في التكذيب إلى درجة المبالغة التي تجاوزوا بها إلى حد الاستمرار والبقاء في الكفر والجحود حتى وقع بهم العذاب، فليس هناك أبلغ في العناد من درجة الإسراف على النفس، بتحقيق النكال على أنفسهم. فأعطت كلمة ﴿ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ الصورة المعبرة عن حقيقة تعاملهم وعنادهم مع الآيات والمعجزات. وفي هذا آية وحجة عليهم، وفي نفس الوقت هو تحذير وتهديد وترهيب لكل من كفر وعاند، وكذلك ترغيب لهم في الدخول في الإسلام. فإن الله تعالى خاذل مَن يعادى دينه، وأهل دينه المؤمنين.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بما امتن به على عباده من عظيم ما يَشْرُف ويُشَرِّف به أمة الإسلام بهذا القرآن العظيم، فيستثيرهم بذلك وينبههم ويؤكد لهم أن ما أنزل إليهم هو أعظم الآيات والحجج الذي فيه عزكم وفخركم ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ لقد امتننا عليكم بإنزال هذا القرآن، الذي فيه شرفكم وعزكم وفخركم وعلوكم إذا تمسكتم به، وتفقهتم فيما فيه من الفقه والعلم والأخلاق، والتدبير لأموركم، ومحاسن

أعمالكم، ومكارم أخلاقكم ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أفلا تعقلون ما فيه من الهدى والإعجاز والشرف، إذ هو بلسانكم، وقائدكم إلى عز الدنيا والآخرة. فإنه سؤال استنكار لمن لم يتعقل هذه الحقائق والمكارم التي في القرآن، والخير الذي يحتويه، والرفعة التي تحصل منه وبه لمن أخذ به. وهو تقرير بما تضمنه الآية الكريمة.

ومن بلاغة بيان الآية الكريمة أنها تستوعب وجهي التعميم والتخصيص. فالتعميم باعتباره بيان عام لكل الناس الذين يدخلون في دين الله تعالى، ويتمسكون بالقرآن الكريم منهجاً وعلماً وعملاً، إذ لم يخصصه تبارك وتعالى في هذا السياق في جيل محدد أو فئة معينة ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ ففيه شرف لكل من أخذ به، إذ هو موطن العز والشرف والقوة والفقه والنباهة والفكر المستنير بالحق، ومكارم الأخلاق، ومنهج محاسن الأعمال التي يُسَجِّلُ لهم به الذكر الحسن في الدنيا والآخرة. والوجه الثاني: التخصيص: باعتبار من نزل فيهم أول ما نزل، فإن فيه شرف للعرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم، وبلغتهم العربية التي يتكلمون بها، إضافة إلى الذي أُنزل عليه، وهو الرسول العربي الأمي، والذي هو منكم أيها العرب، وقد جاء في سورة الزخرف وجه التخصيص في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ وهذه من براعة الإعجاز في البيان، والمتجلية في تعدد أوجه دلالة القرآن الكريم، واستيعابها لجمع مقاصده بأدق السياق، وأقل العبارات، وعمق تراكيب الألفاظ. وقد حصل العز والرفعة للمؤمنين منذ عهده صلى الله عليه وسلم على اختلاف أجناسهم، حتى أصبح ذكر الصحابة بالرفعة والشرف إلى اليوم، وإلى أن تقوم الساعة، فذاك بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي من العرب، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ومن تبعهم إلى يوم الدين، واجعلنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

وقد بدأ البيان الكريم بلام القسم الملتصقة بأداة التأكيد والتحقق لما بعدها من البيان ﴿لَقَدۡ﴾ التي تُثبت لما بعدها من الحقائق التي لا مجال للطعن والشك فيها ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا﴾ فأسند سبحانه وتعالى الإنزال لهذا الكتاب له عَزَّ وجل، ليزيده تعظيماً وتفخيماً وتشريفاً، مع التعظيم لمن أخذه، وتمسك به، وقام بما يجب نحوه من الفهم والعمل والتطبيق والإجلال لهذا الكتاب العزيز العظيم. وفيه تعميم الذين أنزل إليهم ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ ليفيد الاستيعاب لكل الناس جميعاً، لأن الله تعالى أنزله للناس جميعاً. فالمخاطبين به هم جنس البشرية، وإن كان أهل مكة هم أول المخاطبين به، وهم قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجمع بين التخصيص والتعميم.

ثم فَخَّم سبحانه وتعالى القرآن الكريم بتسميته ﴿كِتَٰبٗا﴾ ليفيد أنه إذا أُفرد بلفظ الكتاب فإنه لا يعني إلا القرآن الكريم، فيمتنع غيره أن يكون احتمالاً وارداً وقائماً بأنه هو المقصود، فإن أُفرِد بالذكر فلا يعني

إلا هو القرآن العظيم. ثم ورد بصيغة التنكير ﴿ كِتَٰبًا ﴾ ليعطي المزيد من التعظيم والتفخيم، بأنه هو القرآن العظيم لا غيره. ثم أُلحق به نعمة من أخذه ولَزِمَهُ بأنه حصل على نعمة الشرف والتشريف العظيم ﴿ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: شرفكم. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: حديثكم. وقال الحسن رحمه الله: دينكم[1] مما يدل على عموم الخير المتعلق بأخذه، وسواء فيما يتعلق بدينكم، أو بما يتعلق بتحقق العزة والشرف لكم، والرفعة والمنعة، والعلو والتفوق، وما يتعلق برفعة منهجكم ومكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم وتصرفاتكم. فقد حوى كل ما يسجل لهم به الذكر الحسن في الدنيا والآخرة. فما من أحد عمل بالقرآن إلا وقد حَسُن ذكره، كما كان عليه رسول صلى الله عليه وسلم، الذي وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها (كان خُلُقُه القرآن) [2] فحضي صلى الله عليه وسلم بجميع المحامد من ربه تبارك وتعالى، ومن أصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين، ومن كل مَن دَرَس سيرته صلى الله عليه وسلم.

ثم عاتب سبحانه وتعالى من لم يتدبر، ولم يتفهم وضوح كتابه، ونور حجته، وسطوع إعجازه ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أيغيب عنكم هذا الأمر الواضح الجلي، أليس لكم عقول تعقلون بها ما أنزله الله تبارك وتعالى إليكم. فهو سؤال تقريري يقرر به ما تضمنه القرآن من الحقائق التي فيها شرف وعز لمن أخذ به. وهو أيضاً استنكار لحال من لم يدرك هذا الوضوح، أو أدركه وانشغل وتغافل عنه. فإنه أمر عجيب أن يرى الإنسان عزه وشرفه، ويتركه، ولا يهتم به. فلا يصنع هذا إلا من لم يعقل ذلك. فيكون سؤالاً يحمل التوبيخ لمن عدل عنه. وفيه كذلك استحثاث وإيقاظ وتنبيه لمن لم يدرك ذلك، بأن يعود إلى نعمة القرآن العظيم.

ثم ويخبر سبحانه وتعالى بما حل بمن كفروا على أيدي المرسلين ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ فما أكثر من أهلكناهم من الظالمين الذين كفروا بالمرسلين الذين أرسلناهم بالهدى والحق المبين، فكم من أقوام ظالمة بكفرها وجحودها ومعاداتها لما جاءهم من الحق قد أهلكناهم بعذاب الإبادة لهم جميعاً، وأوجدنا بعدهم قوماً آخرين غيرهم. فإن الذين أبادهم الله تعالى بسبب كفرهم كثير جداً، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، وفي هذا تحذير وتهديد وتخويف للمخاطبين الذين ينكرون ما جاءهم من الحق.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٣/٣)

(٢) أحمد، المسند، برقم (٢٥٣٠٢)

وقد بدأ البيان الكريم بقوله تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ ليدل على الكثرة المتعددة، وليفيد شد الانتباه، بأنها ليست قرية واحدة، بل عدد كثير من القرى، لأن ﴿وَكَمْ﴾ تفيد بيان الكثرة والتعدد. ومن دقائق البيان أن نُسِبَ مَنْ وقع عليهم العذاب إلى المكان وهي القرية ﴿قَرْيَةٍ﴾ ليفيد كثرة الهالكين بالعذاب، بأنهم يمثلون المكان الذي جمعهم، وكذلك تضمن السياق الاستغناء عَمَّا ليس لذكره حاجة، فأغنت كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ عن ذكر أهلها، فلم يقل: كم من قرية أهلكنا أهلها، بل قال تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ وهذا من بلاغة الإعجاز البياني الذي يستغني فيه عن زوائد الألفاظ. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: والقرى: لا تُسمَّى قُرى، ولا القرية قرية إلا وفيها مساكن لأهلها، وسُكَّانٌ منهم، ففي إهلاكها إهلاك من فيها من أهلها[1] وقد أهلك الله تعالى الظالمين بالقصم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ والقصم هو القطع بكسره ودكه حتى النهاية، أي: قطعناهم وكسرناهم بالهلاك الذي فصلهم عن دنياهم، ودكهم بالهلاك. ووقوع القصم على القرية ما يفيد شدة العذاب حتى أنه أهلك معالم القرية مع أهلها. مما يبين قوة العذاب وشدته. فنسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

ثم تضمن البيان علة هلاك أهل القرية ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، مما يبين أن الكفر يستوجب العذاب الهالك الشديد ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وأوجدنا بعد هلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ غيرهم، ليسوا منهم، ليعمروا الديار، فينظر الله تعالى ما يفعلون. كما أن في هذا الإنشاء ما يبين قدرة الله تعالى وحكمته، وقوة تدبيره، وأن من استغنى عن دين الله تعالى استغنى الله عن وجوده، وأنشأ بحكمته وقدرته وعظيم سلطانه غيرهم من العباد.

ثم يخبر الله تعالى بحالهم وهيئتهم عندما عاينوا العذاب ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ فلما أدركوا العذاب الذي أحاط بهم، وأنه قد حل بهم ما كانوا به يكفرون ويستهزئون، أخذوا في الفرار جرياً على أرجلهم. فمن شدة خوفهم أنهم بمجرد الإحساس ببأس الله تعالى الذي أنذرهم منه نبيهم، فأيقنوا حينها بحواسهم ﴿أَحَسُّواْ﴾ الذي يفيد إدراكهم لأول للعذاب ومطلعه وأن معاينته كانت بحواسهم التي يعرفون بها الخير من الشر، وذلك بما ابصروه بأعينهم مما أخافهم قبل مباشرته لهم، وبما سمعوا بآذانهم من الأصوات فأذهلهم وأخافهم، وارتعدت قلوبهم من أهوال ما أحسوا بجميع أحاسيسهم أنه مَطْلَع العذاب الشديد، فكيف

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٥٨)

بهم وهم يذوقون البأس ويتلظون به ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ فأخذوا بالركض الذي هو السرعة في الهروب مما أصابهم من الهلع، وأفاد وصف تصرفهم بالركض، شدة جريهم فراراً، وقوة خطواتهم برفع أرجلهم وحطها، وسرعتهم في الهروب ذعراً ووجلاً وخوفاً وهلعاً وهرعاً، تاركين وراءهم كل ما كانوا فيه يُمَتّعُون. وسمى الله تبارك وتعالى عذابه الذي أصابهم بالبأس ﴿بَأْسَنَآ ﴾ لبيان شدته، لأن البأس هو شدة العذاب ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ فأخذوا في الفرار، معتقدين أنهم بفرارهم ناجون من بأس الله تعالى. مما يبين شدة الفزع والهلع الذي عمهم جميعاً. وقد أسند عَزَّ وجل البأس له جَلَّ جلاله ﴿بَأْسَنَآ ﴾ ليفيد قوته وجبروته لمن كفر. وليفيد الإنذار لغيرهم.

فيقول الله تبارك وتعالى حكاية عن الملائكة التي قالت لهم تهكماً بحالهم عند إيقانهم العذاب، وركوضهم جرياً رجاء النجاة بالهروب ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال المفسرون: هذا قول الملائكة لهم[١] ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ لا تهربوا بالركض من العذاب الذي أحسستم به ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ ارجعوا أن استطعتم إلى ما كنتم فيه من النعمة التي طغيتم بها، وظننتم أن العذاب منكم بعيد، فقيل ذلك لهم تهكماً واستهزاء بحالهم بعد أن أنكروا الحق وكفروا به: ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة التي طغيتم بها، وظننتم أن العذاب منكم بعيد، فغرتكم الحياة الدنيا وجميل النعمة، فارجعوا إلى نِعَمَكم التي نَعِمْتُم فيها من رغد العيش على سبيل التهكم بفرارهم عما كانوا فيه من رغد العيش.

وفي تسمية ذلك بالترف ﴿مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ ما يدل على عظيم النعمة التي كانوا فيها من أطايب المعاش، فعودوا إلى منازلكم ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ ﴾ فعودوا إلى بيوتكم ومنازلكم التي كنتم تتذرَّون فيها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ لعله حين عودتكم يأتي من يسألكم شيئاً من دنياكم، على وجه السخرية والاستهزاء، قال قتادة رحمه الله تعالى: استهزاء بهم[٢] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: تهكم بهم وتوبيخ، أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٣٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٢٣٦)

لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبون السائل عن علم ومشاهدة[١] بما يفيد التوبيخ والتهكم والتندر، وهذا إن عدتم إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم، فهيهات هيهات أن تعودوا لها، فإن العذاب مدرككم قبل هروبكم.

فلما قالت الملائكة لإلوائك الظالمين الذين ركضوا فراراً عندما أحسوا بأس الله تعالى ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ قال الله تعالى حكاية عن المكذبين ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ يا هلاكنا، يا عذابنا، فقد كنا ظالمين لأنفسنا، فحصل منهم الاعتراف بظلمهم ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ أي: مستحقين ومستوجبين لعذاب الله تعالى لِمَا كان مِنَّا من ظلمنا لأنفسنا بالكفر والمعصية، وإنكارنا للحق ورده. فاعترفوا بظلمهم المستوجب لعذاب الله تعالى لهم، فكان اعترافهم في الوقت الذي لا ينفع فيه الاعتراف والندم. لتتحقق فيهم الحسرة المتضمنة للعذاب النفسي الداخلي الذي أصاب قلوبهم بالهلع، قبل العذاب الحسي. حيث يجتمع عليهم العذاب جسدياً ونفسياً. فهو نداء ندم وحسرة ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ﴾ فهو دعاء مشمول بالاعتراف والاقرار والاستحقاق للهلاك والعذاب الذي حل بهم من بأس الله تعالى، الذي عاينوه بجميع حواسهم. وفي هذا تحذير للمخاطبين بهذا القرآن العظيم في كل زمان ومكان، ولجميع جنس الإنسان. فتأملوا ما أصاب غيركم قبل أن يحل بكم.

ثم يخبر الله تعالى عن ترديدهم ما قالوا من الحسرة والندامة حتى حصدهم العذاب ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾ فما زالوا يرددون ﴿يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ في توجع وتحسر وتفجع وندامة ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾ حتى جعلهم الله تعالى بعذابه حصيداً كما يُحصد الزرع ويُصرم. فأصبحوا خامدين لا حراك لهم. فَشَبَّه اللهُ تعالى خمودهم بخمود الزرع الذي حُصِد، فأصبح مرمياً على الأرض؛ لا حراك له، ولا تفاعل مع ما يصيبه من النسيم الذي يهب عليه، ويابساً بعد اخضراره، ومطروحاً بعد أن كان قائماً على سوقه، ومرمياً بعد أن كان متمايلاً في حركته مع هبوب نسيم الرياح عليه. فقد شَبَّه اللهُ سبحانه وتعالى توقف حياتهم بعد أن كانت زاهية بالحركة والبهجة والنشاط والتعالي، بخمول الزرع المحصود. فإذا بهم سرعان ما انطفوا، وسرعان ما خمدوا، كالزرع الذي صُرِم بحصده، فأصبح كأنه لم يكن هناك زرع قائم في بهجته وطلعته وحركته، وتفاعله مع حركة النسيم التي تهب عليه، فذهبت الحياة التي كانت تدب باليقظة والحركة. إنها صورة معبرة لقوة وسرعة قدرة الله تعالى، وبيان لحياة الإنسان المنتهية سريعاً، إما

(١) الزمخشري، الكشاف (١٠٤/٣)

برضاً من الله تعالى أو بسخط منه. فاغتنم حياتك أيها الإنسان بالخير، ولا تغتر بشعلة الحياة وتوقدها، فإن الذي منحها لك هو الذي يسلبها منك، على الوجه الذي يناسب مسيرتك.

ومن بديع السياق الكريم استعمال لفظ الحصاد ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا ﴾ والذي انتقلت به دلالته إلى صورة القصم والحصد للزرع بعد أن أينع، وظهرت بهجته وجَمُلَت هيئته، وحان حصده، فأصبح أثراً بعد عين، وأصبح مطروحاً بعد أن كان قائماً، وأصبح خامداً بعد أن كان متحركاً يميناً وشمالاً، وأصبح لا خير ولا نفع فيه بعد أن كان يعجب الزراع. وكذلك استعمال لفظ الخمود ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ الذي يدل على انطفاء الوهج، وذهاب العلو والاستعلاء والتمادي في الارتفاع، وكأنه لم يكن هناك زرع قائم، وكذلك كأنه لم تكن هناك حياة لهم في هذه الأرض، وفي هذا المكان. إنها صورة مليئة بعظيم قدرة الله تعالى، وبعظيم بالبلاغة البيانية، والإعجاز الذي تُذعن له العقول من كل وجه: في سبكه وتصويره، وفي ألفاظه، ومعانيه، ودلالاته، وفي إرشاده ونهجه، وترغيبه وترهيبه، وفي تشريعه وأحكامه وقضائه. فكل شيء فيه ومنه معجزة. فسبحان من أعجز بكلامه عباده، فكان القرآن العظيم آية عظيمة. فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يذكر سبحانه وتعالى عظيم حكمته في عظيم سلطانه وخلقه وتدبيره ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ فإن كل ذلك الخلق العظيم منفي عنه العبث، وأنه بلا غاية ولا هدف ولا لتحصيل نتيجة، فنفي اللعب عنه، نفي لكل عبث ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ فإنه عَزَّ وجل لم يخلق السماء والأرض وما بينهما من الخلق عبثاً؛ من غير هدف ولا غاية حكيمة، ولا فائدة، بل إن الله سبحانه وتعالى خلقها بالحق، ولهدف وغاية وحكمة عظيمة، وتدبير حكيم. مما يفيد أنه عَزَّ وجل خلقها ليعرف العباد بها قدرته ووحدانية ربهم، وربوبيته وألوهيته سبحانه وتعالى، ولتكون حجة على الناس، وليعتبروا بذلك كله. وأن الذي خلق هذا الكون العظيم قادر على فنائه وإعادته، ومنها البعث والنشور بعد الموت، والحساب والجزاء. وأنه على كل شيء قدير.

ومن جميل البيان أنه سبحانه وتعالى أفرد السماء، وأفرد الأرض ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ﴾ فإفراد السماء باعتبار العلو، لا باعتبار عددها، وأفرد الأرض باعتبار الدنو، والأسفل، والتحت. ليشتد الانتباه إليها. ثم ذكر ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بالرغم من أن كل ما على وارتفع فقد سمى، إلا أنه سبحانه وتعالى أخرج ما بين السماء والأرض وأظهره بلفظ ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وذلك لإخراج وإبراز السماء وإظهارها من بين كل ما ارتفع عن الأرض وعلا، ليحصل الالتفات والانتباه لها وحدها، في سعتها وعلوها، وعظمتها، وكذلك للفت الانتباه إلى كل ما عَلُق بين السماء والأرض. وليفيد كذلك التقرير والمبالغة في التخصيص.

فإن ما بين السماء والأرض من مخلوقات لا يعلم عددها وأنواعها إلا هو سبحانه وتعالى، سواء مما يراه الإنسان من الأعيان والأجرام، والمتحركات، أو يسمعه من الأصوات، كالرعد، والرياح، أو يحسه كالهواء، فإنه كله ملك لله تعالى. وأنه بالرغم من أن كل ما علا وارتفع عن الأرض فقد سما، وهو داخل في مفهوم السماء، إلا أنه قد تم تخصيصه وتعيينه بالذكر ليشتد الانتباه إلى علوه وسكونه في الفضاء. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والسماء كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، والسماء: المطر، سُمّي به لنزوله من السماء[١]

وفي هذا التخصيص شَدُّ انتباه، ولفتةٌ كريمة للعباد نحو التأمل والتدبر في عظمة مخلوقات الله تعالى التي نزلت بقدرة الله تعالى عن السماء، وارتفعت عن الأرض، فاستقلت بنفسها بين السماء والأرض، وليتأمل العباد عظمة المخلوقات التي تدل على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى. فيتأملون في السماء وعلوها، والأرض ونزولها، وما فوق الأرض، وما في باطنها، وما يجري عليها وما يخرج منها من المياه والنبات. وكذلك النظر والتأمل والتدبر في مخلوقات الله تعالى السَّيَارَة بين السماء والأرض، فاستقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، واستقلت عن الأرض فلم تثبت عليها. فكل ذلك الخلق العظيم منفي عنه العبث، بلا غاية ولا هدف، بل خلقه الله عَزَّ وجل بالحق لحكمة التي تم ذكرها وإيضاحها فيما سبق من البيان. ونفت كلمة ﴿ لَٰعِبِينَ ﴾ المنفية بما قبلها من البيان: العبث عن تدبير الله تعالى، بل نفت كل هدف لا حكمة منه في خلق هذا الكون العظيم، وأثبت نفي اللعب أن هناك حكمة وغاية لهذا الخلق العظيم. كما قال تعالى في سورة الدخان: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ وما خلقنا السموات والأرض إلا بالحق المنافي للباطل، ليفيد وجوب التفكر في هذا الخلق ودلائله، وعدم إغفال عقول العباد عن التدبر فيما خلق الله سبحانه وتعالى من السماوات والأرض، وما في ذلك

[١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٥١)

من الدلائل العظيمة الكثيرة، التي توضح وتبين لهم أن الله تعالى خلق خلقه بالحق، وليس بالباطل، الذي ينتفي معه الهمل والإهمال لما خلق. مما يبين للعباد أهمية النظر والتأمل لهذا الكون من خلال الحكمة والغاية العظيمة التي بينها عَزَّ وجل.

ثم يبين جَلَّ عَزَّ وجل أنه على الفرض والتقدير فيما لو أراد سبحانه وتعالى أن يتخذ ذلك لهواً فإن له كامل الإرادة. فقال جَلَّ جلاله ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ فإنه سبحانه وتعالى فيما لو أراد ذلك فلا يمنعه شيء منه. مما يفيد أن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن بهدف اللعب واللهو الذي هو التسلية، إذ أنه سبحانه وتعالى فيما لو أراد ذلك ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا ﴾ فلا يمنعه شيء من ذلك ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ لاتخذناه من عندنا، ولا نحتاج أن تكون لكم به علم ومعرفة، وما منعنا من شيء عن اتخاذه لو أردناه، وما أخبرناكم به، ولا عرفتموه، ولا اطلعتم عليه، لعزته وعظمته، وأن معرفتكم له لا تمنعه من اتخاذه فيما لو أراد عَزَّ وجل. وجملة ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ تفيد كمال القدرة، مع عدم الحاجة له، وعدم الحاجة لأن تعرفونه، ولا حاجة لمعرفتكم له، ولا عناية ولا اهتمام منا لمعرفتكم به، وهذا فيما إن أردنا ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ وهذا فيما لو كنا فاعلين، ولكنا مُنَزَّهِين ومترفعين عن ذلك، لجلالته وعظمته عَزَّ وجل. فجملة ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ تأكيد للامتناع، أي امتناع اتخاذ اللهو. بما يفيد تنزيهه عن ذلك سبحانه جَلَّ في علاه، فإنه مُنَزَّه عما عليه العباد من اللعب أو اللهو.

ومن دقائق البيان وغزارة إعجازه وقوة بيانه أن الآية بدأت بحرف الامتناع ﴿ لَوۡ ﴾ وسماه تبارك وتعالى في هذه الآية باللهو ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا ﴾ بينما في الآية السابقة لها سماه لعب ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ واللهو: يكون بمعنى الزوجة، قاله مجاهد، وقال قتادة رحمهم الله تعالى: واللهو بلغة أهل اليمن المرأة فيكون بمعنى المرأة[1] وقال عكرمة والسدي رحمهما الله تعالى: المراد باللهو هنا الولد[2] وكذلك يعني: اللعب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس[3] فاللهو يأتي بمعنى: الترويح عن النفس بما

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٩/١٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٣/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٧/٥)

لا تقتضيه الحكمة[١] فجميع هذه المعاني والدلالات منفية عن الله تعالى. وقد نفى سبحانه وتعالى في الآية التي قبلها اللعب، من أن يكون خلق السماء والأرض بقصد اللعب ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وفي الآية الثانية نفى المقصود من تحصيل اللعب وهو تحقيق اللهو الذي هو ثمرة اللعب. فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يتخذ لعباً من مخلوقاته، ومنزه عن اللهو الذي يقتضي خلق ما يلهو به من المخلوقات. فهو ممتنع عنه، كما هو مستغني عن الزوجة وعن الولد، لعظمته وعظمة سلطانه، لأن ذلك لا يتناسب مع ذاته وجلالته وعظمته تبارك وتعالى، ولا مع قوة الحكمة ونزاهتها، ولا مع الغاية من خلق هذا الكون العظيم، فليس لله تعالى حاجة في أن يتخذ لهواً، سواء من ولد أو زوجة أو لعب، ولا أن يكون من إرادته ذلك، ولو أراده ما منعه شيء عَزَّ وجل، فهو مالك الملك كله، فلا ينازعه أحد في فعله وخلقه وملكه سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى[٢] عن دلالة ﴿إِن ﴾ من قوله تعالى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ أنها تفيد النفي: أي ما كنا فاعلين ذلك، وتأتي بمعنى الشرط، إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين. وهذه من بلاغة البيان، وجمال نسق الكلام، وقوة ورحابة دلالة القرآن، لتستوعب أوجه المراد، الذي يتحقق به كمال المراد مع كمال وتمام الإعجاز في القرآن الكريم.

ثم ينتقل السياق العظيم إلى بيان القطع الفاصل في إزهاق الباطل من الله تبارك وتعالى، وأنه هو المتكفل بذلك، فقال جَلَّ جلاله ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ فإننا نرمي وبسرعة متناهية الباطل بالحق. فنهدم الباطل ببيان الحق وكشفه وإظهاره وإعلانه. مما يفيد أن دلالة الحق في هذه الآية الكريمة هو القرآن العظيم، لما فيه من الحجج الدامغة، ويشمل كل ما يقضي الله تعالى به. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ننزل الحق من عندنا، وهو كتاب الله تعالى وتنزيله على الكفر وأهله، فيدمغه[٣] والباطل هو كل عمل وفكر وقول واعتقاد فاسد، فيمحوه ويزيله بضربه في مقتله الذي لا يقوم بعده أبداً، فإذا هو هالك ومضمحل. ليتبين بهذا السياق علاقة هذه الآية الكريمة بالتي قبلها، أن من الذي أراد الحق، والقطع به لكل باطل، فإنه ليس من شأنه اللعب واللهو، فيثبت ويبين لعباد جَلَّ في علاه أن ما تقتضي حكمته وعزته وسمو أفعاله جَلَّ جلاله هو أنه منزه عن كل نقص تبارك وتعالى، وعن كل عيب جَلَّ في علاه.

(١) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٧٦٨/٢)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٣/١١)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٩/١٦)

فليس من شأنه تبارك وتعالى اتخاذ اللهو ﴿ بَلۡ ﴾ دع أيها النبي، وأيها المخاطبون ما قاله الفاسقون في ذات الله تعالى مما لا يجوز في حقه عَزَّ وجل.

فإن ﴿ بَلۡ ﴾ تفيد مع ما قبلها الامتناع عن اتخاذ اللهو، وإثبات قوة الحق التي يدفع بها سبحانه وتعالى الباطل فيمحوه ويزيله. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ﴿ بَلۡ ﴾ للإضراب عن اتخاذ اللهو، وعن أن يكون الخلق لعباً، إضراب إبطال وارتقاء، بل نحن نعمد إلى باطلكم فنقذف بالحق عليه كراهة للباطل[١] فكيف نتخذ الباطل ونحن نرفع ونعلو بالحق، وندمغ به الباطل ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ ﴾ فإننا نرمي وبسرعة متناهية الباطل بالحق. وكلمة ﴿ نَقۡذِفُ ﴾ تفيد القوة والسرعة في الرمي ﴿ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الذي هو القرآن ﴿ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ ﴾ وهو الكفر وأهله، وكل عمل وفكر وقول فاسد، بما فيها أعمال الشياطين ﴿ فَيَدۡمَغُهُۥ ﴾ فيمحوه ويزيله بضربه في مقتله الذي لا يقوم بعده أبداً، فإذا هو هالك ومضمحل. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ[٢] ﴿ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ فيُهلِكُ اللهُ عَزَّ وجل الباطلَ بالحق؛ فإذا هو منتهي وبائد، فلا أثر ولا وجود له. والقرآن الكريم عِلْمٌ وحجج وبراهين، وبيان ودلائل ومواعظ، فيزيل الشبه وأمراض القلوب بتصحيح الأفكار، وضبط الشهوات بالترغيب والترهيب والبيان المفضي إلى قبول الحق، وترك الباطل.

ومن جميل البيان وروائعه في وصف زهوق الباطل، هو ورود ﴿ فَإِذَا ﴾ التي تفيد وقوع المفاجأة في الزوال، تعبيراً ووصفاً لسرعة زوال الباطل، وسرعة مباغتة الحق له ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ فإنها قوة في السلطان، وقوة في بلاغة البيان، وقوة في وصف الحقائق بأدق الألفاظ وأظهرها في إعلان وبيان المراد.

وفي القرآن الكريم علاج لأمراض الشبهات والشهوات والأجساد. قال السعدي رحمه الله تعالى: وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يُورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رَدَّ حق إلا وفي أدلة الله تعالى من القواطع العقلية والنقلية ما يُذْهبُ ذلك القول الباطل، ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٨/٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٣/١١)

أحد[1] والمتأمل حتى فيما يصيب الإنسان من أوجاع وأمراض أو مس، أو أثر حسد أوعين، فإنه بقراءة القرآن على المصاب يقوم متعاف، لا أثر لما أصابه عليه.

ثم يقول تبارك وتعالى متوعداً أهل الباطل ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ فيا معشر أهل الباطل من المشركين وعموم الكافرين: الويل والهلاك والدمار والعذاب وسوء المنقلب، والعاقبة الوخيمة عليكم ولكم، مما تصفون اللهَ تعالى به مما لا يليق بعظمته، إذ تفترون عليه الكذب، من الشريك والصاحبة والولد، واللعب، واللهو والعبث، واتخاذ الإناث، وكل ما وصفتموه به من وصف لا يليق بجلاله وعظمته ووحدانية ربكم وربوبيته وألوهيته، وجلال أسمائه وعظيم صفاته الْحُسنَى.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى كمال قدرته، وكمال ملكه وتدبيره، وطاعة ملائكته المسبحة بحمده من غير فتور ولا ملل ولا توقف ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ فإن له وحده جميع من في السموات والأرض ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن السماوات والأرض ملكاً له، إيجاداً وتدبيراً وتصريفاً لشؤونها. فكيف بمن له هذا الملك العظيم أن يتخذ لذاته لهواً أو لعباً، أو شريكاً، وله ملك جميع ما خلق. فإنه تقرير يدمغ به باطل الكافر والملحد والمشكك، والمفتري الكذب، وصاحب الفكر المنحرف على أي وجه، وأي اتجاه كان.

ثم يخص سبحانه وتعالى بالذكر الذين اصطفاهم بالمنزلة الرفيعة، وهم الملائكة من خلقه، المسبحة بحمده ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ فإن الملائكة الذين هم عنده سبحانه وتعالى في السماوات لا يستنكفون عن عبادة ربهم تبارك وتعالى، ولا يستكثرون طاعتهم له عَزَّ وجل، ولا يستطيلون زمن وكثرة عبادتهم لله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي: ولا يتعبون ولا يفترون ولا يكلون، ولا يشعرون بالعي والملل من عبادة ربهم تبارك وتعالى، بما يفيد أنهم في نشاط ومداومة على عبادة لله تعالى. فهم في طاعة دائمة لا تنقطع. فماذا أنتم صانعون يا من تصفون ربكم بما لا يليق به. فلا حاجة لله تعالى فيكم، بل أنتم الفقراء إليه في كل شيء من شؤونكم.

ثم بعد تعميم عبادة الملائكة الشاملة لكمال الطاعة، يخص من عبادتهم التسبيح ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فيذكرون الله تعالى، وينزهونه عن النقائص والعيوب ليلهم ونهارهم، من غير فتور ولا كلل ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي: لا يسأمون، فإنهم مستغرقون في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فإن أوقاتهم

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٧١)

غير خالية من عبادة الله تعالى وتسبيحه وتمجيده. مما يبين كمال وجلال الله تعالى، ومقامه العظيم الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، وعظيم سلطانه وتدبيره. فإن تسبيحهم كالنَّفَس لبني آدم. وفي هذا إرشاد لبني آدم أن يعبدوا الله تعالى ويسبحوه، وينزهوه، ويجلوه، ويجاهدوا أنفسهم في ذلك، تأسياً بالملائكة المسبحة بحمده. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

بعد أن أوضح جَلَّ جلاله شأن عبادة ملائكته الذين يعبدونه ويسبحونه من غير فتور ولا كلل ولا ملل، يكشف ويُعري أضدادهم من الكفرة والمشركين، فيبين سبحانه وتعالى جسامة ما وقع المشركون فيه من الضلال الكبير. إذ يؤكد سبحانه وتعالى بحجة دامغة على ضلال المشركين؛ وذلك بسؤال استنكاري، وتقريري، وتوبيخي، فيكشف بهذا السؤال جهلهم، ويستثير به التأمل والتدبر ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ففي هذا السؤال تعجب من شركهم المنافي للواقع والحال، وفي نفس الوقت هو إنكار على المشركين الذين اتخذوا معبوداً عاجزاً من دون الله تعالى.

والاستفهام في قوله تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ يفيد الاستنكار مع التوبيخ الذي ينفي به قدرة تلك المعبودات من دون الله تعالى على أن تجلب نفعاً أو تدفع ضراً. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ فهل هذه المعبودات التي اتخذوها من جنس الأرض تستطيع أن تعيد الأموات إلى الحيات، فهل ﴿ يُنشِرُونَ ﴾ أي: يَبْعَثُون الأحياء. فلا أحد يقر لها بذلك، حتى من يعبدونها، فكيف إذاً تعبدون عاجزاً، وكيف تطلبون منها ما تريدون، وتتوجهون لها بالعبادة؟ فإنها مصنوعات من جنس الأرض، ومن الحجارة، فهل ﴿ يُنشِرُونَ ﴾ هل يستطيعون إحياء الأموات؟ وفي هذا ما يبين أن القرآن الكريم يُزْهِق الباطل بالحق، فيدمغه فإذا هو متهالك، حتى يبطل الشرك بالبرهان القاطع، الذي يقر به كل عاقل.

ثم يقيم سبحانه وتعالى المزيد من الحجج الداحضة للباطل من فيئة الشرك ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ لو افترضنا وسلمنا بأن في السماء والأرض آلهة متعددة غير الله تبارك وتعالى لاختل نظام الكون ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ لفسدت السماوات والأرض في جميع حالاتها وشؤونها ونظامها، وهلك من فيهما بوقوع وحدوث التنازع والتمانع بين الشركاء، وذلك لاختلاف الآراء والرغبات والكيفيات في تدبير شؤون السماء والأرض. وبالتالي فإن انتظام الكون ودقته دليل على أن مدبره واحد أحد، فَرْدٌ صمد، لا ينازعه أحد في ملكه وتدبيره وسلطانه، بل إن ذلك التدبير يدل على عظمته في ذاته سبحانه وتعالى، وقوة سلطانه، وعظيم خلقه وملكوته، فتنزه عَزَّ وجل عن الشريك ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فتنزه الله سبحانه وتعالى، وتقدس ﴿ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ ﴾ الذي يدل على عظمته، وعظمة ملكه، وقوة سلطانه، فتنزه ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الشريك، أو اتخاذ الزوجة، واتخاذ الولد، وغيرها من النقائص. فقد تنزه تبارك وتعالى، وعظمت اسماؤه وصفاته بلا حدود من الكمال والجمال والقدرة والسلطان.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى قوة عظمته وسلطانه بأنه لا أحد يسأله عما يفعل باعتراض أو بموافقة ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ فمن كماله جلاله وعظيم سلطانه أنه لا أحد أعلى منه فيسأله، ويتعقبه، ويراقب تدبيره في عباده، وفي الكون كله، بينما المخلوقين يُسألون من خالقهم تبارك وتعالى، ويحاسبهم ويجازيهم، وأيضاً يُسألون فيما بينهم عما يفعلون، فكل رئيس يسأل مرؤوسه، وكل صاحب حق يسأل حقه، ويتعقبه، ويقاضيه.

ثم يكرر سبحانه وتعالى الاستفهام الإنكاري التعجبي بوجه وأسلوب آخر ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ بدأت الآية الكريم بصيغة من الاحتجاج المعجز لهم، بما يحمله من إقامة الحجة الدامغة على باطلهم، إذ استهل مطلع الآية الكريمة في إقامة الحجة بسؤال استنكاري، معطياً صورة المبالغة في اعوجاج منهجهم وفهمهم ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ هل اتخذ هؤلاء آلهة من دون ربهم؟ فهو العليم بهم وبكل شيء، سبحانه وتعالى، ولكن يؤكد بهذا السؤال استعظام فظاعة ما تخذوا من الآلهة ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ هل اتخذ هؤلاء آلهة من دون ربهم؟ سؤال يستنكر حدوث هذا الفعل الشنيع. كيف يكون

منهم ذلك؟ إذ أنه لا يمكن ذلك باعتبار الأدلة العقلية، وباعتبار الأدلة الكونية وباعتبار الأدلة الشرعية. ومن قوة تأكيد البيان لهذا الشأن فإنه باعتبار الآية السابقة التي هي ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾ يكون الانتقال بمزيد من الاستعظام من الآية السابقة التي بينت التعجب من حالهم، وبالأسلوب الاستنكاري لما تخذوا من معبود عاجز عن إعادة البعث بعد الموت، مع التأكيد الانتقالي الذي يستعظم فجورهم بما اتخذوا من المعبودات من دون الله تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾ ففيها انكار على المشركين الذين اتخذوا معبوداً من الأرض من دون الله تعالى، وأن صفته العجز عن أن يبعث من يموت. بينما في هذه الآية الكريمة ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ سؤال استنكار واستغراب بأن هل يصح وهل يُعقل أن اتخذ هؤلاء آلهة من دونه سبحانه وتعالى؟ ليفيد استعظام هذا الأمر وشناعته. وهو استفهام إنكار وتعجب للمبالغة في التوبيخ، وتجهيل عقولهم التي اتجهت إلى الشرك المنافي للحقائق، وما يجب على العاقل مما يراه من الأدلة الكونية والشرعية. ووصف آلهتهم أنهم من دونه، وكل شيء هو دونه عَزَّ وجل.

وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن الاستفهام الأول: احتجاج من حيث المعقول، لأنه قال ﴿ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾ أي: أهم يحيون الموتى؟ هيهات! والثاني: احتجاج بالمنقول، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن، أم الكتب المنزلة على سائر الأنبياء[١] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ولكنهم بادعائهم لها الإلهية يلزمهم أن يَدَّعُوا لها الانشار. لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل شيء، والانشار من جملة المقدورات، وفيه باب من التهكم بهم، والتوبيخ والتجهيل[٢] فالأول بني عليه دليل الاستحالة من طريق العقل، وهذا بني عليه دليل بطلانه بالشرائع الربانية. فلا عقل يقر بإحياء شركائهم للموتى، ولا تُقر لهم الكتب السماوية المنزلة بذلك. فهاتوا إذاً برهانكم الذي اعتمدتم عليه. فقد ألحق اللهُ تبارك وتعالى سؤاله الاستنكاري بمطالبتهم بالبرهان ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ ﴾ فهاتوا دليلكم وحجتكم التي تبرهن وتثبت أن لله تعالى شركاء من شواهد كتب الله تعالى المنزلة على رُسُلِهِ، فأثبتوا بأنها آلهة من دون الله عَزَّ وجل، فذلك مطالبة بالبرهان والدليل، في صيغة عظيمة ومفحمة من الاحتجاج في إقامة الحجة الدامغة على باطلهم، وذلك بالمطالبة بما هم عاجزون عن الاستدلال عليه بأي حجة.

ثم يزيد ما عَجَّزَهم به عن الإتيان بالحجة بقوله سبحانه وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي ﴾ فهذا الوحي الذي نزل من الله تعالى وهو القرآن الكريم، هو ذكر من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٨٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣/١٠٧)

معي من المؤمنين، والذي نزل لتتبعوه، فإنه ينطق بالتوحيد، وإقراره بالبراهين والحجج من كتاب الله تعالى الذي معي، وهو القرآن الكريم ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ وكذلك الشأن في ذكر الأمم السابقة ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ مما نزل على الأنبياء من الكتب، كالتوراة والإنجيل والزبور. فارجعوا إلى ما جئتكم به، وخبر الأمم السابقة، وما جاء به الأنبياء من قبلي، ستجدونها ناطقة بنفي الشرك وإثبات توحيد الله تعالى لا شريك له. وبالتالي فمن أين لكم ما تضادون به التوحيد من الشرك.

ثم يتجاهل البيان إجابتهم التي لا يستطيعون برهنتها لشركهم والاحتجاج والإتيان بها، فينتقل البيان الرباني إلى ما يقرره تبارك وتعالى بقوله عزَّ وجل ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ فأكثرهم يجهلون الحق والصواب فيما يقولون ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ بل أكثرهم منصرفون عن الحق واتجاههم إلى الباطل، الذي اعتادوا عليه، وبالتالي فإن عدم علمهم بالحق هو كونهم لا يطلبونه بالنظر والتمعن والتأمل والتدبر فيما يقال لهم من الحجج والبراهين، والعلم الناصع الساطع المبين. فأصبحوا يجهلون ما يأخذون ويأتون، ولِمَا يجب أن يذروه ويتركوه، فأوردهم ذلك إلى الإعراض ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ فهم معرضون عن التأمل والنظر والتفكر فيما جاءهم من الأدلة والبراهين الموضحة والمبينة للحق. وهذا هو واقع أكثرهم ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ بما يفيد أن القليل منهم يتأملون ويفكرون، ويستجيبون للحق.

مما يبين أنه لا رجاء منهم لقبول الحق، لا بدليل معقول، ولا بدليل منقول عن كتب الله تعالى المنزلة على من سبق من المرسلين، ولا بالقرآن العظيم الذي نزل معك أيها النبي صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن الإنسان إذا عاش في الجهل، وأخذ بما يجهل، واعتمده في حياته على أنه حقيقة، ولم يتفكر في غيره من الحجج والبراهين فإنه يعادي الحق بباطله، ثم يَعرض عن الحق منصرفاً عنه إلى باطله العقيم. في حين أن واجبه هنا أن يتأمل، ولا يتعصب، فإن التأمل بالعقل، مع سماع الحجج والبراهين التي من عند الله تعالى، وما يُعَلِّمُهُم به رُسُولُه صلى الله عليه وسلم من الحق، فإنه الطريق المستقيم لهم للعودة إلى رشدهم، بقبول الحق والعمل به. كما أن جهلهم بالحق مع الإعراض عنه يجعلهم مستمرون في غيهم وطغيانهم، مما يفيد أهمية بيان مخاطر التقليد التي عاشوا عليها، وانعكاسها على عقولهم، وعلى تصرفاتهم، وعلى ما سيؤول إليه أمرهم.

ثم يخبر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بما أوحى به لمن سبق من لمرسلين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فما أرسلنا قبلك يا أيها النبي من المرسلين إلا ونوحي إليه بعمدة الرسالة وأصلها، بأنها قائمة على ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فكل

رسول أرسلناه قبلك إلى قومه، فإنه مأمور بأن يدعو قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فلا يستحق العبادة أحدٌ إلا ربكم العزيز الحكيم، فَوَحْدُوا ربكم بالعبادة، ولا تشركوا معه غيره. فلا أحد له شرك مع الله تعالى، فالكل خلقه، وهو المعبود وحده لا شريك له عَزَّ في علاه.

مما يفيد أن عليكم يا عبادي التزام توحيدي، وإفرادي بالألوهية والعبودية والربوبية، فالتزموا عبادتي وحدي، بما يوجب نفي الشرك، وصرف العبادة لله تعالى وحده لا شريك له. وقد أكد ذلك بأن حصر سبحانه وتعالى الألوهية فيه وحده لا شريك له ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ فأنا ربكم، لا غيري رباً لكم، بعد أن عطفها على ما قبلها، من وحدة الرسالة ومضمونها القائم على ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ مما يبين أن دينكم الذي جاء به نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم هو نفسه الذي جاء به المرسلون في تقرير التوحيد، فإن الله تعالى واحد عَزَّ وجل. ثم أنهى البيان بأمر الوجوب ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ فاعبدوني وحدي لا شريك لي، فاصرفوا العبادة لي وحدي وفق ما أمرتكم به، ولا تشركوا معي غيري. وفي هذا غاية البيان بتحريم الشريك، وأنه كفر، منافي لما أمر الله تعالى به. وأن دين الله تعالى واحد في أصله. وإن اختلف الأنبياء في تفاصيل التشريع وفق ما نزلت به الكتب السماوية.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى قُبح قول بعض الذين كفروا، وهم الذين نسبوا لله تعالى الولد ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ فقال بعض الكفرة والمشركين بما حكاه الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ ويعنون بذلك الملائكة. قال قتادة رحمه الله تعالى: المراد بالولد الملائكة[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: نزلت في خزاعة، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعاً في شفاعتهم لهم[٢] والولد: عام يشمل البنات والبنين. وبذلك فإن في عمومه ما يستوعب به كل من قال

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٤٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٨٦)

أن الله تعالى اتخذ ولداً، سواء من البنين أو البنات، وذلك لعموم السياق. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدا[١] وهذا من بلاغة تراكيب السياق، فقد استوعب أسباب النزول، واستوعب من شابهم في الافتراء على الله تعالى الكذب، ممن نسبوا الولد إلى الله تعالى. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً عظيماً.

وهذا الإخبار من الله تعالى عنهم يفيد التقبيح منه عَزَّ وجل لمن نسب الولد إليه جَلَّ في علاه. وهو تشنيع لقولهم، كقول النصارى: أن المسيح ابن الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، وقول المشركين: الملائكة بنات الله، فتعالى الله عما قالوا علواً كبير. فيكذبهم الله تعالى ويلجمهم بالتنزيه عن ذلك ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ والتي تفيد التنزيه لمقامه جَلَّ في علاه عن نسبة الولد إليه عَزَّ وجل، مؤكداً ذلك بقوله تبارك وتعالى ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ فكذب افتراء أولئك الكفرة بأسلوب بيان حقيقتهم، سواء كان المقصود بهم من قال الملائكة بنات الله عَزَّ وجل، أو من قال عيسى ابن الله، أو من قال عزير ابن الله، بأن هؤلاء عباد وليسوا أولاداً لله تعالى، غير أنهم مخصوصون بما أكرمهم الله تعالى به ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ بل إنهم عباد مصطفون بما أكرمهم الله تعالى وأحسن إليهم من الاجتباء والاصطفاء والمقامات السامية الرفيعة. وفي هذا إبطال لزعمهم، وتكذيب لقولهم، وأنه افتراء عظيم. وكشف لسفه القائلين بهذا البهتان العظيم. كما فيه ثناء على ملائكته وعلى من اصطفاهم برسالته عَزَّ وجل. كما أن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالعباد، ليدل على أنهم عبيد من خلقه جَلَّ جلاله. غير أنهم مُكرمون بما أكرمهم وأعزهم به عَزَّ وجل.

ثم وصف سبحانه وتعالى هؤلاء العباد المكرمين بأنهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يتقدمون على ربهم بقول؛ فضلاً عن أن يقوموا بعمل دون أخذ الأمر والتوجيه منه عَزَّ وجل، فلا يقولون إلا ما قاله الله تبارك وتعالى. بما يدل على كمال طاعتهم لله عَزَّ وجل.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بكمال علمه عنهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ يعلم ما قدموا من أعمال، وهو معنى قوله عَزَّ وجل ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وكذلك ما هم عاملون ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فهو يعلم ما سيقومون به قبل أن يعملوه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وأنه مع كرامتهم عند ربهم، فإنهم لا يشفعون إلا لمن رضي الله

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٤٠٤)

أن يُشفع فيه ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ ومن صفاتهم كذلك أنهم من خوفهم وإجلالهم لربهم تبارك وتعالى فإنهم ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خاضعون، خائفون، متذللون لربهم عَزَّ وجل. ليدل على كمال الذل والطاعة والخوف من الله تعالى. فهم مكرمون عند ربهم، في حين أن الذين نسبوا الولد لله تعالى غير خائفين ولا مشفقين، فاستحقوا ما سينالهم من العذاب الأليم.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن حال هؤلاء العباد المكرمين فيما لو قالوا بأنهم آلهة من دون الله عَزَّ وجل، فإن مصيرهم النار ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فمع ما لهم من الكرامة والمقام الرفيع، وما هم عليه من الخشية، فإنه لو تجرأ أحد منهم فادَّعَى لنفسه الألوهية ﴿ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ فإن مصيره جهنم ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وبمثل ذلك الجزاء، نجازي بجهنم كل من جعل الألوهية والعبادة لغير الله سبحانه وتعالى. وفي هذا بيان وتحذير وتهديد، وإبلاغ لكل أحد بأن من أشرك بالله تعالى فقد تحققت له النار. وكذلك من كَذَبَ على الله تعالى، بأن نسب له الولد فإن مصيره النار. وأن من ادعى الألوهية فهو ظالم، ومصيره إلى النار وبئس المصير. وأن النجاة لمن أفرد الله تعالى بالألوهية والربوبية والعبادة، وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك هو أصل النجاة من النار.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى لفت الانتباه نحو السماوات والأرض، وكيف كانتا كتلة واحدة، ثم كيف أصبحتا بقدرته، وعظيم تدبيره وتكوينه بما هي عليه الآن من خلقه وتكوينه لهما سبحانه وتعالى. فيظهر لكم فيهما عظيم تدبيره وتكوينه بما هي عليه الآن من الخلقة والتكوين. وفي هذا تحريض للكافرين بهذا البيان الكوني إلى التدبر والتفكر فيما يشاهدون من ملكوته جَلَّ في علاه، عسى أن يتحقق به إيمانهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فبدأت الآية الكريمة بسؤال استفهام وتعجب واستنكار على ذهولهم عن هذه الحقائق المذهلة، فينكر سبحانه وتعالى على الكافرين إهمالهم التدبر والتفكر فيما يشاهدون. فهو استفهام توقف وتدبر، فأين عقول الكفرة عن هذا التسخير الذي يرونه بأبصارهم. فاشتمل السؤال على استنكار تغافلهم، وتجاهلهم لما هو محسوس بالرؤية البصرية، ومُدْرَك برؤية البصيرة، أفلم يشاهدوا بأبصارهم، ويتأملوا ببصيرتهم في تدبير هذا الكون الذي يدل على عظمة الله عَزَّ وجل، ووحدانية ربهم جَلَّ جلاله، وعظيم قدرته وسلطانه وجلاله وهيبته وقوة قهره. وفي نفس الوقت هو تقرير للكافرين بما يجب عليهم حيال خروجهم عن الحق بالكفر والشرك، وما ينسبون إلى لله تعالى من الولد، وما لا يليق بجلاله وعظيم تدبيره وسلطانه ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ ألم يلاحظ ويشاهد الذين كفروا واقع تكوين السماء والأرض التي يتعايشون معها. فقد كانتا كتلة واحدة ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ فقد كانت السماوات والأرض كتلة واحدة، ملتصقتا ببعضها البعض ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ فنتج عن ذلك الانفتاق بعد الالتصاق صلاحهما للحياة، فكانت السماء لا تمطر، والأرض لا تنبت باعتبارهما كتلة واحدة، لا ثقب فيها ولا انفصال بينهما ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: ففتقهن سبع سماوات، بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، بعضهن فوق بعض[١] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: كانت السماوات والأرض رتقاً واحداً، أي كانت كتلة واحدة، ثم انفصلت السماوات عن الأرض[٢] قال عكرمة رحمه الله تعالى: كانتا رتْقاً لا يخرج منهما شيء، ففتق السماء للمطر، وفتق الأرض للنبات[٣] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانتا ملتزقتين، ففتقهما الله[٤]

فاستوعب الفتق دلالة انفصال الأرض والسماء عن بعضها البعض، وكذلك انفتاق السماوات السبع عن بعضها البعض، وانفتاق الأرض السبع عن بعضها البعض، وانفتاق السماء للمطر، وانفتاق الأرض للنبات. وهذا من الإعجاز في البيان. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: ألم يروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً، أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٦/١٦)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦١/٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٧/١٦)

(٤) المرجع السابق (٢٥٥/١٦)

ولهذا قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[١] فآياته سبحانه وتعالى دالة على أنه رب كل شيء ومالكه، وأنه لا إله غيره، ولا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

فإنه عَزَّ وجل جعل هذا الماء سبب لحياة كل شيء، فهو سبب لحياة الإنسان، والنبات، والحيوان، والحشرات، فكل ما ينمو ويتكاثر فإنه لا يمكن له أن يعيش إلا بوجود الماء الذي أنزله تبارك وتعالى من السماء. أفلا تتفكرون في ذلك، وتستدلون به على ما يجب عليكم تجاه ربكم وخالقكم، ومدبر شؤونكم، وشؤون خلقه جميعاً، أفلا يتحقق لكم بذلك الإيمان الصحيح الصادق ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أفلا تجعلهم هذه الآيات يؤمنون بربهم، فإن لم يؤمنوا فبأي شيء يؤمنون، فليس بعد هذه الآيات العظيمة إلا الجحود والنكران لمن لم يؤمن. مما يبين أن منهج القرآن هو منهج استدلال بالحقائق الواقعة، وأن أدلته قائمة ثابتة، ومبثوثة في الكون العظيم على أنه رب كل شيء ومالكه، وأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن هذا القرآن العظيم هو كتاب ربنا المعجز في كل وجه.

وفي تدرج عجيب عظيم ينتقل البيان الكريم إلى استدلال آخر يبين كمال ودقة خلقه تبارك وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ فإن من الأدلة على كمال ودقة خلقه سبحانه وتعالى، الدالة على وحدانيته عَزَّ وجل أنه جعل في الأرض ما يثبتها، ويمنعها من الاضطراب والحركة حفظاً على سلامة المعاش للعباد، لأجل أن يتم القرار عليها ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ فجعل ربكم سبحانه وتعالى في الأرض رواسي، وهي الجبال. فسمى سبحانه وتعالى الجبال بمهامها وعلة وجودها، وبما يتحقق منها من رُسو الأرض وقرارها، وذلك لإبراز علة وسبب وجودها، وقوة تدبيره عَزَّ وجل، وعظيم نسق التدبير ونسق البيان وجماله. وهو قادر على أن يجعل الأرض راسية من غير جبال عليها، ولكن من حكمته عَزَّ وجل أن جعل لكل شيء سببا، وهي السنن التي وضعها للكون بدقة متناهية، لتتجلى بها عظمته، وقدرته، ودقة خلقه ومخلوقاته، ودقة سننه التي يجب مراعاتها عند العمل والطلب والإنجاز في حياة العباد.

ومعنى الرواسي أي: الثوابت، فجعلنا في الأرض جبالاً ثوابت تَثْبُت بها الأرض وتستقر، ولا تميد بالحركة والاهتزاز، فقال عَزَّ وجل عن علة وجود الرواسي ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ لئلا تميد، أي: تضطرب وتتحرك بالناس. ومعلوم أن اضطرابها وحركتها، يمنع رغد العيش، وحياة الإنسان وسعادته، ليدل ذلك على

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٥/٣)

رحمته بالعباد، وأنه جَلَّ جلاله هيأ لعباده سُبُل الحياة الآمنة المطمئنة. بل نص على ذلك تنصيصاً، بأنها من أجل العباد ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وفي ذلك التنصيص بيان لمقام تكريم العباد من ربهم جَلَّ جلاله.

ثم من كمال نعمته، وكمال خلقه الدال على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته أنه عَزَّ وجل جعل في الأرض طُرقاً ومسارات للعباد ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فجعل تبارك وتعالى في الأرض وبين الجبال فجاجاً، والفج هو: المسلك والطريق الواسع. ليشمل الطرق التي بين الجبال، والطرق الأخرى التي في الأرض. بل ورد ذكر الفجاج بصيغة الكثرة ﴿فِجَاجًا﴾ ليفد المبالغة في كثرة الفجاج التي لا تحصى من كثرتها، وتعددها. ثم أكد سبحانه وتعالى المقصد من هذه الفجاج بأنها ﴿سُبُلًا﴾ أي: طرقاً مؤدية ومفضية إلى غيرها. ومن جميل البيان أن السُّبُل تأكيداً وتوضيحاً للفجاج، وهي أكثر توضيحاً وتعمياً في بيان الفجاج، فالسبل أعم من الفجاج، إذ هي طرق نافذة، غير مغلقة ومفضية إلى غيرها. كما أن الفجاج غالباً ما تكون بين شيئين، مثل أن تكون بين جبلين أو أكثر. وتتصف الفجاج بالسعة، وهي أوسع من الشّعْب. وبإضافة السبل إلى الفجاج ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ ما يؤكد أن الفجاج طرقاً مفضية لغيرها، وليست مُغلَقة النهاية. وهذا من دقائق البيان الدال على إعجاز دلالات كلام رب الأنام.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى امتنانه على عباده بهذه الرواسي، وبهذه الفجاج، وهذه السُّبُل ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لعله يحصل من العباد بهذا الخلق وهذا التدبير العظيم أن يهتدوا للحق، وتوحيد الله تعالى. بل من عمق دلالتها، أن قوله تعالى ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ تشمل الاهتداء إلى توحيد الله تعالى وعبادته وشكره، وتشمل الاهتداء بهذه السبل إلى ما يريدونه ويطلبونه في حياتهم، فيشكرونه ويعبدونه وحده لا شريك له. والمقصد التعبدي هو الأصل في البيان، ويجمع معه غيره من المنة بالنعمة على العباد. ومن دقائق البيان قوله تعالى ﴿لَّعَلَّهُمْ﴾ ولم يقل لعلكم. ليخص بذلك الذين لم يهتدوا بعد، فأما أنتم أيها المهتدون فقد حصل منكم ما هو مطلوب منكم. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فلعل الضال يهتدي بهذا البيان المفصح للحق، والمبين له أكمل وأعدل بيان.

ويزداد التفصيل البياني الدال على كمال ودقة خلقه سبحانه وتعالى، ووحدانيته، وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه لا إله غيره، ولا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، بأن جعل السماء كالقبة على الأرض، مع حفظها ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ فإن من آياته عزّ وجل الدالة

على أنه رب كل شيء ومالكه والمتصرف فيه، أنه جعل السماء سقفاً للأرض، كما هي القبة، وكما هو السقف للبيت ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ وحفظ تبارك وتعالى السماء من أن ينالها شيء من التشقق، أو السقوط، أو أن تخترقها الشياطين، فهي محفوظة محروسة بالارتفاع، وبتقاذف الشُّهُب حين أرادة الشياطين لها، كما قال تعالى في سورة الحجر ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ ومع ذلك تجد الكفرة معرضون ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أي: في صدود عن هذه الآيات، من الأفلاك والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، وظهورها وغيابها وانتظامها، التي لو تفكروا فيها وتأملوها لكفتهم في إثبات وحدانية الله تعالى، وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه هو الذي خلق هذه المخلوقات، وهذا الكون العظيم. ولكنهم عن آيات ربهم الكونية معرضون، والتي هي آيات السماء والأرض. فدخلوا في الشرك والغي والفساد.

ثم يتدرج البيان الرباني إلى دقائق من خلقه وعظيم تدبيره العزيز الرحمن الرحيم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فإن ربكم الله وحده عَزَّ وجل هو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر بهذا النظام الذي يسير الجميع فيه بانتظام بديع، لا يتقدمون ولا يتأخرون ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فكل في مداره ونظامه يسير بانتظام دقيق، فلا يتأخر ولا يتقدم، ولا يحدث بينهم تعارض ولا تداخل ولا تصادم. بل من دقة نظام مخلوقاته المذكورة أن كل واحد منها يدور في فلكه الخاص به ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ ﴾ والفلك هو المدار الذي يدور فيه. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: الفلك: مدار النجوم الذي يضمها، وسمَّاه فلكاً لاستدارته[1] ووصف سير هذه المخلوقات بالسباحة ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ بما يفيد أن حركة كل من المذكورات من الشمس والقمر والنجوم كائنة في مساحة مدارها الذي تتحرك فيه، وبالنظام الذي أودعه الله تعالى فيها، وأنه مُتَّصف بالسعة، لأن السباحة من ﴿يَسْبَحُونَ ﴾ تفيد سعة ما يسبح فيه السابح. مما يدل على سعة مداره. وجميع ذلك يدل على كمال الطاعة، وكمال التدبير، وكمال الدقة.

وفي هذا البيان العظيم لفت الانتباه إلى نعمة الليل في سكونه وظلامه، ومجيئه ورواحه بعد مجيئه، وعودته وتعاقبه، فلا يتأخر ولا يتقدم. ثم ذكر سبحانه وتعالى النهار في ضيائه ونوره، وقدومه، وتدرجه عند بزوغه، وبلوغ تمامه وكماله، ثم تدرجه في رحيله، وعودته بعد رحيله، وتعاقبه مع الليل في نظام لا يعتريه الخطأ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٢/٥)

من كمال دقته، ولا يتأخران في تواردهما وتعاقبهما. ثم ذكر الشمس التي تضيء النهار بنورها الذي يملأ الكون بشعاعه، وتدرجها في المغيب، كما هو تدرجها في الظهور والبزوغ. وكذلك القمر بهيئته التي يظهر بها هلالاً، ثم يتدرج حتى يصبح قمراً منيراً، ثم يتدرج في الانقباض والتقلص حتى يصبح هلالاً، فيضمر حتى يغيب ويختفي عن الأنظار. فيعرف الناس بهذه النعمة العظيمة عدد السنين والحساب، وفصول السنة وشهورها، وأسابيعها وأيامها، ومتى يزرعون ومتى يحصدون. فإنها آية عظيمة لمن تدبر شأنها وأمرها. ليدرك العبد أن لهذا الكون خالق عظيم سبحانه وتعالى، هو رب كل شيء ومالكه ومدبره. وأنه لا معبود بحق إلا هو عَزَّ وجل. وأنه واحد أحد، لا شريك له في عبادته ولا في ملكه.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

وبعد بيان الله تبارك وتعالى لآياته الموجبة لإيمان الإنسان، وتوحيد ربهم وعبادته وحده لا شريك له، ينتقل السياق الكريم إلى شأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومعالجة القضايا العقدية والفكرية المتعلقة بالكافرين، وما يتصل بها من الطبيعة البشرية، فقال جَلَّ ذكره ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ يخبر الله تعالى بأنه ما جعل لبشر قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دوام البقاء في الدنيا ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ لم يحصل لأي أحد من البشر من قبلك أيها النبي أن خلدناه في الدنيا. ليتقرر بذلك أن كل من عليها سيموت إذا انقضى أجله في الدنيا. وبالتالي فلن يبقى النبي صلى الله عليه وسلم حياً في الدنيا، وأنه يسري عليه ما سرى لغيره من قبل، فإنه سيموت مثل بقية الناس. وفي هذا معالجة وبيان للمؤمنين وللكافرين أن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر مثل غيره من جنس البشر، وأنه سيموت إذا حان أجله عليه الصلاة والسلام ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ وبالتالي أفإن مات النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهل أنتم أيها الكفرة بعده ستبقون أحياء؟ فهل يُؤَمِّلُ هؤلاء الكفرة أن الحياة ستستديم لهم بعدك ؟

فهو سؤال يفيد الاستنكار والحث على التعقل، ونفي أن يحصل لهم أو لأي أحد دوام البقاء في الدنيا. فهو استثارة ومحاجة عقليه بما يعلمون ويعرفون، فإن تربصهم لموت النبي عليه الصلاة والسلام لا يحقق لهم البقاء. فقد حسم سبحانه وتعالى هذا الأمر، بما يفيد ارجعوا لعقولكم، وللحقائق والحق، وأن الحل ليس في موته صلى الله عليه وسلم، بل في قبولكم الحق قبل أن تموتوا وتفنوا، وأنتم على كفركم وشركم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ذلك الفناء بالموت، ويقرر وجوب وقوعه على جميع البشرية ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فكل نفس في هذه الدنيا ستذوق غصة الموت، ونزوله بها، عند مفارقة الروح للجسد. ليشمل ذلك جميع أنفس الخلائق بلا استثناء، حتى الأنبياء والمرسلين. وقد جاء بيان حصول الموت بدلالة الذوق ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ فدلالة الذوق لبيان أن للموت وقع قوي على النفس حين نزع الروح. لأن الذوق أبلغ شيء في الشعور من جميع الحواس، إذ هي أدق الجوارح وأكثرها إحساساً وتأثراً. فَقَرَّب الوصف للمُخَاطَب باللفظ الدقيق الذي قرب صورة حال وقوعه بقوة أثر استطعام جارحة اللسان. وهذه من بلاغة البيان الوصفي. لتكون أشد وضوحاً وتعبيراً وصفياً لحالته، وكذلك أوقع أثراً للإحساس بمهابة الموت وسكراته. لأن أصل الذوق إنما يكون بالفم. وهذه استعارة منه، فكأن الموت أمراً مُتَذَوَّقاً على وجه التشبيه بالذي يُعرف عند الاستطعام أو التَّطَعُّم. إذ تقول العرب: ذقت من إكرام فلان ما يُرغبني في قصده، ويعنون: عرفت[1] فَصَوَّرَ البيان الكريم حصول الموت بقوة ما يتذوق الإنسان بلسانه، والتي هي أدق الجوارح وأكثرها إحساساً وتأثراً.

فَقَرَّب سبحانه وتعالى حدوث أثر الموت حين وقوعه بالإنسان بقوة أثر استطعام جارحة اللسان لما تتذوقه من المطاعم والمشارب، فإذا ذاق اللسان ما يكره من مرارة بعض الأشياء تمعر وجهه، وتصرَّف تصرف الخارج عن طوره، وعن قدرته على كتم مشاعره حيال ما تذوق. وفي هذا ترهيب وتهويل؛ حتى يجتهد كل إنسان في استيفاء ما يخفف عنه سكرات الموت، وذلك بالإيمان وطاعة الرحمن. فالنبيين والصالحين يذوقون الموت ولكن تتنزل الملائكة على المؤمنين حين الاحتضار، فتبشرهم بما يسرهم، وتُؤمنهم من الخوف. فتبشرهم برضوان الله تعالى وكرامته لهم، فليس شيء أحب إلى المؤمن مما أمامه ذلك الوقت. وأما الكافر فيذوق أشد حالات الموت، إذ تأتيه الملائكة، فتبشره بعذاب الله تعالى وعقابه، فليس شيء أكره إليه مما أمامه. وورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (...إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضياً عنك، إلى روح الله وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك) [2]

---

(1)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥/٢)

(2) النسائي، سنن النسائي، برقم (١٨٣٣)

ثم بعد أن تقرر عند كل إنسان أنه سيموت، وكذا يموت غيره، فإنه تبارك وتعالى يوضح ويخبر عن حكمته من إيجاد الإنسان في هذه الحياة الدنيا حتى يعتبر ويستعد ويعمل وفق شريعته عَزَّ وجل ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ نختبركم بالشدة وبالرخاء، فيعطيكم ربكم عَزَّ وجل ويرزقكم الخير ليختبركم به، وكذلك يأتيكم ويصيبكم بما تكرهون ابتلاء وتمحيصاً لكم، فيختبركم به، فالاختبار واقع على النقيضين بما يحب الإنسان وبما يكره في هذه الحياة الدنيا، حتى ننظر كيف تتعاملون مع المحبوبات، ومع المكروهات. وذلك للنظر كيف شكركم وكيف صبركم. وهل تطلبون ما تحبون بالأوجه والمسارات الصحيحة، ووفق منهجه عَزَّ وجل، أو تطلبونها بالأوجه المخالفة لشريعته تبارك وتعالى؟ وهل تؤدون حق الله تعالى فيها، وتستخدمونها في الأوجه المشروعة، أو تُستخدمونها في معصية الله تعالى؟ وكذلك كيف تتعاملون مع المصائب؟ وكيف تدفعونها؟ وكيف صبركم عليها؟ فهل هو وفق منهج الله تعالى الذي شرعه لكم؟ أو بما يخالفه من الطرائق المخالفة لدينه سبحانه وتعالى؟ هل تصبرون على الضراء أو لا تصبرون؟ فإن في ذلك ابتلاء واختبار، حتى يحصل كل واحد من العباد على ما يستحق من الثواب ومن العقاب، فكل نفس مرهونة بعملها.

ثم يثبت الله تعالى حقيقة البعث والنشور بعد الموت، وذلك بتقرير الرجوع إليه عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فمرجعكم جميعاً إلينا أيها الناس، وذلك يوم تُحشرون للحساب يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فالمرجع إلى الله تعالى في الآخرة، حيث الحساب والجزاء، والجنة والنار. وفي هذا موعظة بيانية لحقائق الدنيا التي يواجهها الإنسان، وبيان للمسؤولية وللمآل، وكشف لحقيقة المآل، وما يجب له من الاستعداد بالعمل الصالح. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى بعباده، حيث يبين لهم الحق من الباطل، ويرشدهم للحق، ويحذرهم من الباطل. مما يبين أن الله تعالى أراد لعباده جميعاً الخير، ولكن هناك من تلهيه ملهيات الدنيا وغرورها.

ومن بلاغة الوصف والبيان أن كلمة ﴿ بِٱلشَّرِّ ﴾ وردت عامة، لتشمل جميع أنواع المصائب التي تصيب الإنسان، من قليل أو كثير، أو لما بينهما من الأنواع والدرجات، ولتستوعب جميع صور الشر وأنواعه ودرجاته ومجالاته، سواء كان في الأموال، أو الأجساد، أو الأولاد، أو عموم وأنواع الممتلكات والأحوال التي لا حصر لها. وكذلك استوعبت كلمة ﴿ وَٱلْخَيْرِ ﴾ جميع أنواعه وأصنافه ودرجاته، ومواقعه من الإنسان، في الجاه والمال والولد، وبسط الجسم، والصحة والعافية، وفي الرزق والكسب بأنواعه ودرجاته، وفي الجاه والحظوة، وغيرها مما لا يحصيه أحد. وأفادت كلمة ﴿ فِتْنَةً ﴾ الهدف، بأنه للاختبار والابتلاء. مما يعني أنه يجب عليك أيها الإنسان أن تعمل بشريعة الله تعالى في حال الخير، وفي حال الشر. ثم أُخْتُصِرَت النتيجة في قوله تعالى ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فإنها جملة قليلة في كلماتها، وقصيرة في سياقها، ولكنها تعني الشيء الكثير من الدلالات

والمعاني العديدة، ومن تقرير العودة والمآل إلى الله تعالى، وما يتعلق بالحساب على الأعمال، ثم الجزاء، بأن يُوفَّى كل إنسان بما يستحق مما اكتسب. فمن صبر وعمل صالحاً فسيحصل على كمال الثواب وأجزله، ومن أساء سيحصل على ما يقابل ويوازي سيئاته. فلا يظلم ربك أحداً من عباده. وفيه درس، بأن غاية الدنيا هي الابتلاء، من أجل تحصيل النتيجة، وأن العاقل الموفق من الله تعالى هو من يعمل لِمَا بعد الموت.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بموقف الكافرين منه عليه الصلاة والسلام، بما يفيد التطمين، فإنني على علم بهم، وبدقائق ما يحصل منهم، فلا يفوتني شيء من حالهم وأمرهم وشأنهم ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ فإذا رآك الكفار يا أيها الرسول سخروا منك ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ فإنهم يسخرون استخفافاً بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهم يقولون فيك وعنك على سبيل الاستخفاف ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾ أهذا هو الذي يسب ويحتقر الالهة؟ بذمها والتنقص منها، فكانوا يذكرون ذلك بصيغة السؤال الذي مفاده التعجب والاستنكار، بما يرمز منهم إلى التحقير والتقليل من شأنه صلى الله عليه وسلم، وأنه مُخْطِئ في وصفه وتنقصه من آلهتم التي يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى. وفي المقابل تجدهم كما قال عنهم عَزَّ وجل ﴿ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ ومقابل اعتزازهم بشركهم ومعبوداتهم من الأصنام فإنهم بذكر الله تعالى كافرون، فإنهم في امتناع عن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم، ومنكرين أنه كلام الله تعالى، وأنه كتاب ربهم إلى الناس أجمعين. فمقابل ذلك الشرك هم يسخرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينكرون القرآن.

فعجب لحالهم إذ يستاؤون من ذكر آلهتهم بسوء؛ ويذكرون الرحمن بما لا يليق به. في حين أن الاستهزاء في حق آلهتهم حق واقع وواضح مبين، وفي المقابل هم يستهزؤون بمن لا يليق به الاستهزاء، فهم يستهزؤون بالحق الواضح المبين، وهو استهزاؤهم برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكفرهم بالحق الذي هو توحيد الله تعالى، والإيمان بما أنزل الله تعالى من القرآن الكريم. مما يبين شدة ما كان يعانيه عليه الصلاة والسلام من قومه؛ ومن غيرهم من الكفرة المشركين. فكان عليه الصلاة والسلام يتعامل معهم بالصبر والحلم والتريث.

ثم يبين تبارك وتعالى شيئاً من خصائص الإنسان التي يجب عليه أن يتنبه لها، وهي ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: جُعِل لفرط استعجاله

كأنه مخلوق من العجل. قال الفراء: كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة. وقال الزجاج: خُوطب العرب بما تعقل. والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء: خُلقت منه. تريد المبالغة[١] وفي وصفه بالعجل ما يدل على أنه يطلب الشيء قبل أوانه، وهو ضد الحلم والأناة. ففي جنس الإنسان استعجال الأمور والأشياء قبل وقتها، ووصفه بذلك لإفادة المبالغة في الاستعجال، بما يُلحِق بنفسه الضرر. وبناء على تلك الخصيصة، فإن هناك من استعجل من المؤمنين وقوع العذاب بالكفرة، وفي نفس الوقت تولى أولئك الكفرة عن الحق وهم يستعجلون بالعذاب على أنفسهم ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه لما ذكر سبحانه وتعالى المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، فقال تعالى ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه تعالى يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته[٢] بما يفيد أن في الإنسان صفة العجلة، وكأنه مخلوق من العجل، لكثرة هذه الصفة فيه، إلى درجة المبالغة، فهي ظاهرة وواضحة وبائنة في سلوكه ومراده. مما يفيد أهمية التنبه لهذه الصفة، والحذر من شرها.

ثم يخبر الله تعالى مخاطباً المستعجلين بوقوع العذاب على الكافرين من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ سترون انتقامي ممن عصاني، وما سيتحقق في هؤلاء الكفرة المتمردين ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فلا تستعجلون ما سيحيق بهم. وفيه كذلك إنذار للمستهزئين والكافرين عموماً. فقد أمهلهم تبارك وتعالى ثم أهلكهم في غزوة بدر، ورأى المسلمون ما حل بالكفرة المستهزئين. فجاءهم العذاب الذي كانوا به يستعجلون.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ كشف وبيان للطبيعة البشرية من الاستعجال، وأن العجلة إذا استُخدِمت في غير مكانها تأذى بها صاحبها المستعجل، في حين إذا تم توظيفها فيما يجب ويُحمد فيه الاستعجال؛ كانت خيراً له. كالإسراع في فعل الخير، ونجدة المحتاج، والإسراع في التوبة، والإقلاع عن الذنب، وعن المحرمات، ولإسراع في بر الوالدين، وتلبية حاجاتهما، وكالإسراع في قضاء الديون، الإسراع في أداء الفرائض في وقتها، والمبادرة في أداء فريضة الحج. ومثلها مثل الشهوات في طبيعة الإنسان، ليقضي بها الإنسان المأمورات، كالزواج، والسعي في الأرض للمعيشة، والكسب المالي، والإنجاب. وقد وضعت الشريعة ضوابط لها، حتى تسير في مسارها الصحيح.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٠٧/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٨/٣)

ثم يخبر الله تعالى بتماديهم في الكفر والطغيان إلى درجة الاستهزاء بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي يُحشر فيه الناس لرب العالمين، فيخبر الله تبارك وتعالى بقولهم ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فيقول الكفرة استهزاءً وتهكماً وتمادياً في طغيانهم: متى يكون هذا الموعد الذي يُبعث الناس فيه من قبورهم، ويحاسبون ويجزون على أعمالهم بعد هذا التطاول الزمني بين الأجيال، وهذا التفرق في المكان والأزمان؟ متى هو؟ متى يقع؟ متى يكون إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ فكأن الصدق مقرون بتعيين وتحديد ذلك اليوم. وكأنهم يريدون أن يروه تمادياً في التهكم والطغيان. وهذا عناد وتهكم، فإنما العلم عند الله تعالى، وليس عند عباده. فهو سؤال استنكار وتكذيب منهم بالحق. وليس هناك تلازم وترابط بين صدق اخبار الله تعالى بيوم القيامة وبين الإخبار بوقته وزمانه. فلا يلزم من الإخبار به أن يعين موعده لعباده، بما يفيد أنهم يقولون: أننا لا نراه ولا نشعر بوجوده. وحتى لو أن الله تعالى أخبر به، وأُعلموا به، لقالوا تمادياً في الباطل: أثبتوه لنا برؤية ما لم يقع قبل أن يقع حتى نصدقكم. فسؤالهم هو سؤال استبعاد وتنطع وتجاهل واستهزاء. ومع كل هذا يحلم الله تعالى عليهم، ولم يعاجلهم بالعقاب. مما يدل على حلمه صلى الله عليه وسلم عليهم، وأنه واجه في دعوته الأذى والعناد العظيم من المكذبين، والمستهزئين، والمتنطعين، ولكنه يعاملهم بحكمة النبوة، بما يعطي المنهج النبوي الكريم الطريق الذي يجب أن يسلكه الداعية إلى دين الله تعالى من الحلم والتريث.

ثم يتدرج الجواب من الله تعالى إلى إخبارهم بما سيكون عليه حالهم يوم يأتي ذلك اليوم الذي استبعدوه استهزاء به ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ فلو عرف أولئك الكفار وقت وقوع العذاب المهين لهم ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ حين يعجزون عن أن يكفوا ويصدوا النار التي تَصْلَى وتُلهب بها وجوههم وظهورهم، والتي هي أبرز وأظهر مكونات الجسم ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وحين ذلك لا يجدون من ينتصرون ويستعينون ويستغيثون به لتخفيف ورفع ما هم فيه من العذاب. مما يفيد إثبات عجزهم، وعجز غيرهم حين لا يستطيعون ردها البتة أبداً. فهم منغمسون في العذاب الذي لا أمل لهم في أن يخرجوا منه، أو يعينهم أحد على دفعه، أو تخفيفه، ليتبين لهم بذلك شدة العذاب واستمراره، وعدم انقطاعه ورفعه عنهم. فلو تَبَصَّرُوا لعلموا الحق وأطاعوا، ولَمَا قاموا واستمروا على الكفر، ولا قالوا متى هذا الوعد.

ومن روائع البيان في قوله تعالى ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أنه يحمل دلالة تهويل وفظاعة شدة ما هم موعودون به

من العذاب، إذ لو عرفوه لما قاموا على كفرهم، ولا تهكموا به. وبرسولهم صلى الله عليه وسلم، فلو علموه لدخلوا في الإسلام، وأذعنوا وصَدَّقوا وآمنوا.

ثم يتدرج الجواب من الله تعالى إلى الإخبار بموعد الساعة، وأنها تأتي فجأة للناس ﴿ **بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ** ﴾ فيبين تبارك وتعالى سرعة مجيء الساعة، ومفاجأتها للعباد ﴿ **بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً** ﴾ فإنها تأتيهم فجأة. وقد بدأ البيان الكريم بحرف ﴿ **بَلۡ** ﴾ لتفيد التهويل للموقف، والتخويف والترهيب بما بعدها من بيان له ﴿ **بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً** ﴾ فإن الساعة تأتي للناس فجأة، بما يفيد أهمية الاستعداد لذلك اليوم، وعدم الانتظار بالتسويف والتأجيل. وأهمية أخذ الحيطة والحذر، فإن مجيئها سريع ومفاجئ. وإذا جاءت فإنهم لا يستطيعون دفعها ولا حتى مدافعتها لتأخيرها. وأن من قوتها أنها تبغتهم فتحيرهم وتذعرهم ﴿ **فَتَبۡهَتُهُمۡ** ﴾ أي: تأتي بغتة، فيتحيرون من أمرها، لأنهم يواجهون شيئاً يحيرهم، ويذهلهم من فواجع شأنها، فيذهل الفكر عما يشاهده من أهوالها ﴿ **فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا** ﴾ فليست لهم القدرة على ردها عن أنفسهم، فإن من هولها أنهم يدركون تمام الإدراك أنه لا قدرة لهم جميعاً على ردها، أو مدافعتها، أو توقيها، بل إن الأمر حاصل ونافذ لا محالة؛ ولا هروب منه، ولا سبيل لهم لدفعها ولا مدافعتها ﴿ **وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ** ﴾ وليس لهم أمل في أن يُعطوا مهلة من الزمن، يتداركون فيها ما كان منهم من الباطل والكفر والعناد. فحينها يُدْرِكُون أنه لا يمكن أن يحصل لهم التأجيل حتى يتوبوا، ويستقيموا، فيأتمروا ويعملوا بما أمرهم ربهم به. فإن ساعتها هي ساعة كمال الاستسلام لها، فإنها ساعة جزاء وإثابة، ولا ثمة عمل، فقد انقطع العمل والتوبة بحصولها ومعاينتها. ونسأل الله تعالى السلامة والنجاة والغنيمة، وحسن الخاتمة.

﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾
قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ
ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ
مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ
أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا
يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ثم يأتي البيان للمعاندين الكافرين ولمن بعدهم بإظهار ما تعامل به الأقوام السابقة مع المرسلين، فإنه لما استهزأ المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا بما حكاه الله تعالى عنهم وهو ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ يبين الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن هذا هو سنن من كفر بالمرسلين من قبلك ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فلقد تحقق الاستهزاء بالأنبياء من جميع مَن كفر بالمرسلين من قبلك أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فقد أحاط عذاب الله تعالى بالساخرين من أنبيائهم بما يستحقون من العذاب. وتصدرت الآية الكريمة بلام القسم ﴿ وَلَقَدِ ﴾ مع أداة التوكيد **(قد)** التي تفيد: تأكيد تحقق ما بعدها، وهو الاستهزاء بالرسل، وتحقق العذاب فيهم، لإفادة مزيد الإثبات وتأكيده مع تهويله، وتهويل ما أصابهم. وأنه أمر مستغرب من أن يُستهزأ الإنسان بالحق المبين والواضح. وفي وجود الباء ﴿ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ما يفيد التصاق ذلك الاستهزاء بهم، أي: بالرُّسُل، الذي وصل إلى حَد التأذي. كما أن كلمة ﴿ فَحَاقَ ﴾ صورت وبينت شكل العذاب، بأنه أحاط بهم إحاطة شمول، فلم يفلت منهم أحد، بل لم يبق أحد منهم إلا واستوفاه وشمله ذلك العذاب.

وفي هذا تهديد وإنذار للكافرين، وفي نفس الوقت هو تطمين للنبي عليه الصلاة والسلام بأن هذا هو دأب من قبلك من المرسلين، فيما واجهوه من أقوامهم الكافرين، فلا تضيق صبراً منهم، واصبر عليهم، كما أن في هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتقوية له، ولإرادته وعزيمته، وكذلك لمن آمن معه. فقد سَخِرَ أقوامٌ بالرسل من قبلك، فكان استهزاؤهم سبب هلاكهم، فقد أحاطت عاقبة استهزائهم بهم، ورجع عاقبة مكرهم عليهم. مما يفيد عدم إشغال نفسك وقلبك بالذين اتصفوا بالاستهزاء واللهو واللعب بآياته سبحانه وتعالى إذا تُليت عليهم، كونهم مغرورين بظاهر الحياة الدنيا، فأعرض عنهم. وفي هذا التوجيه من الله تعالى ما يفيد التهديد والوعيد والإنذار لهم، فاتركهم أيها النبي في استهزائهم ولعبهم، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد والانتقام. وهذا يدل على خطورة الاستهزاء والتهكم والمكر، فعاقبة ذلك على صاحبه خطير ووخِيمَ. وفيه إنذار للمشركين المستهزئين، فلعل الخائضين في الاستهزاء يتعظون بذلك فيتركونه، ويدخلون في الإسلام.

ثم يتجه الخطاب الكريم إلى بيان ما وجَّه اللهُ تبارك وتعالى به نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يقوله لهؤلاء المستهزئين المشركين المستعجلين بالعذاب، والذين اتخذوا من دونه آلهة ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ قل لهم يا أيها النبي: من الذي يحفظكم ويحرسكم من عذاب الرحمن إن أراد إنزاله بكم. من ذا الذي يستطيع أن يمنعكم من بأس الله عَزَّ وجل إن جاءكم حال راحتكم بالليل وأنتم نائمون في فرشكم، أو إن جاءكم حال انشغالكم في النهار بمعاشكم ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ سؤال استنكار بصيغة الاستفهام، الذي يستثير الانتباه والتأمل. والذي جوابه حاضر ومتعين، بأنه لا أحد. أي: لا أحد يستطيع ذلك.

وقد تم البيان بلفظة ﴿ يَكْلَؤُكُم ﴾ التي تفيد الحفظ والرعاية، فيحفظكم في نومكم، ويرعى مصالحكم، بتهيئتها لكم، حين تسرحون لطلب معاشكم، فيدبركم. فإنه سؤال مُعَبِّر عن أدق وأقوى معاني الرعاية والحفظ منه سبحانه وتعالى. فَيُثبت السياق أن الحافظ هو الله تعالى وحده لا شريك له، كما ينفي السياق أن يكون أحد يستطيع منع مراد الله تعالى منكم إذا أراد بكم ما تستحقون من العذاب.

وقد ورد البيان هنا بصيغة الاستفهام الذي يحمل دلالة الإنكار والتوبيخ والتقريع، مع نفي أن يمنعهم شيء من عذاب الله تعالى. فيثير السياق ما يلفت انتباه الساخرين إلى العذاب وحصوله وتمكنه منهم، وعدم امتناعه عنهم فيما لو عذبهم الله تعالى به، مع عجزهم عن رده أو تجنبه، جزاء لما يقولون من السخرية بنبيهم، والاستهزاء بما أتاهم به من الآيات العظيمة الكريمة، مع تنبيههم إلى نعمة حفظهم في منامهم، وتيسير رزقهم في يقظتهم. وورد هذا التنبيه بسؤال عن الذي يمنعكم من عذابه عَزَّ وجل، بما يستثير عقولهم إلى التفكير في انتفاء وامتناع من يستطيع أن يحول بينهم وبين عذابه جَلَّ في علاه، فإنه هو الذي يحفظكم ويرعاكم بالليل والنهار. بالتالي لا أحد يمكنه حفظكم من عذابه عَزَّ وجل إذا حل بكم.

وورد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما قاله تبارك وتعالى، أي: أن يتلوا عليهم ذلك قرآناً كريما ﴿ قُلْ ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء الساخرين المشركين ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ من هو الذي يستطيع أن يمنعكم من أن يصيبكم عذاب الرحمن ليلاً وأنتم في راحتكم نائمون، أو نهاراً في يقظتكم وأنتم تخوضون في أعمالكم، وانشغالكم بطلب معاشكم.

وقد ورد الانذار الكريم باسم الرحمن ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الذي يحمل دلالات الرحمة التي يحفظكم بها في ليلكم وأنتم غافلون في كامل راحاتكم وغفلتكم، والذي سهل لكم برحمته

اليقظة بعد نومكم، وضَرْبِكُم في الأرض لطلب الرزق الذي يهيئه ويسخره لكم. فمن يمنعكم من عذاب ربكم الذي هيأ لكم تلك النِّعَم التي تعيشونها ليلاً ونهاراً. ومع هذا فأنتم عن القرآن ومواعظ الله تعالى في صدود ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ فهو انتقال بحرف ﴿ بَلْ ﴾ من التهديد والتقريع إلى كشف حقيقة طويتهم، التي ينتفي منها ومنهم قبول الحق، فإنهم لن ينتفعوا بالتقريع ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ فإنهم لا يعترفون بإحسان الله تعالى عليهم، معرضون عن آياته وعن آلائه، وفي هذا اثبات من الله تعالى امتناعهم عن الاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وعن التجاوب مع القرآن العظيم، ومع جميع أنواع مواعظه سبحانه وتعالى.

ثم يبين عَزَّ وجل ضعف عقول المشركين والتصاقها بعجز وضعف الآلهة التي تُعبد من دونه جَلَّ في علاه ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ فبأسلوب عظيم يعظ الله تعالى عموم المشركين بما يكشفه لهم عن عجز ومهانة كل ما يُعبد من دونه، وضعف ووهن عقول كل من يعبد شيئاً من دونه عَزَّ وجل. فورد النص الكريم بسؤال يستثير الفكر، ويستنطق الحقيقة، ويكشف زيف المعبودات من دونه ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ سلهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم فيما لو جاءهم عذاب الله تعالى. ألهم معبودات من دوننا تمنع عنهم عذابنا؟ سؤال يستثير ويستنطق الحقيقة. فالجواب: إنها عاجزة عن دفع الشر عن نفسها، فكيف تدفع شراً عن غيرها. فإذاً كيف تعبدون وترجون عاجزاً؟ أين عقولكم؟ إنه سؤال يضطرهم للاعتراف، ويكشف لهم حقيقة معبوداتهم، وحقيقة عقولهم، بأنها في جهل وموت وعجز سحيق. مما يفيد ويبين أن منهج الله تعالى قائم على الإقناع الذي إذا باشر العقل التصق به قبولاً له وامتثالاً، ومحبة ومدافعة عنه. فإنه يقوم على منهج الإقناع الواضح، لأنه حق واضح، وكل ما يعارضه باطل من كل وجه. وفي هذا نسف وإبطال لمن اتخذ معبوداً غير الله جَلَّ جلاله.

وحرف ﴿ أَمْ ﴾ هنا قام مقام **(بل)** ليفيد الإضراب والإنكار والتقريع والتوبيخ. فهو انتقال من كشف طويتهم إلى إظهار ضعف عقولهم، وعجز آلهتهم، فينكر عليهم هذا المستوى من التفكير المنتكس في الجهل والمتعمق فيه. بما يفيد التوبيخ، وشدهم إلى الارتقاء بعقولهم، وإخراجها من هذا الجهل الذي تعمقوا فيه، وتعمق فيهم. كما أن المنع في قوله تعالى ﴿ تَمْنَعُهُم ﴾ أفاد من هو صاحب القوة الذي له الحيلولة دون وقوع وإصابة العذاب لمراد بكم من ربكم إذا وقع فيكم وعليكم، فيمنعه عند وقوعه من تحصيل المراد به منكم؟ وهذا المنع يستثير الحقيقة، ويظهرها ويبرزها، بأن عذاب الله تعالى إذا وقع فليس هناك من يستطيع منعه والحيلولة دون وقوعه، أو تخفيفه ولو مقدار مثقال ذرة مما أراه الله تبارك وتعالى.

ثم أسند سبحانه وتعالى العجز على آلهتهم حقيقة ثابتة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ إن حقيقة هذه المعبودات مسلوبة القدرة والاستطاعة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ عاجزين وقاصرين عن نصرة ذواتهم، والقاصر عن نصرة نفسه من باب أولى أن يكون قاصراً عن نصرة غيره ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ولا هم مِنَّا ومن إرادتنا وقدرتنا يمنعون عذابنا عن غيرهم، فلا ينصرون غيرهم. فمن لا يستطيع نصر نفسه، فإنه لا يستطيع نصرة غيره.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿يُصْحَبُونَ﴾ من قوله تعالى ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ تعني: يُصحبون بالجوار من عذابنا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا هم مِنَّا يُجَارُون[1] قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: لا يجيرهم مِنَّا أحد، لأن المجير صاحب لجاره[2] قال الطبري رحمه الله تعالى: يُجارُون: يُصحبُون بالجوار[3] فإن العجز قد أحاط بهم من كل وجه، فهي إحاطة ثابتة لا مفر لهم منها. وفي هذا بيان عن أن منهج القرآن الكريم، ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم يقوم على الإقناع الذي يباشر العقل ويُلصِق به الحق والحقيقة، فإما يقبله الإنسان عن قناعة، أو يحيد عنه عناداً وكفراً، وليس جهلاً، لأنه قائم على منهج الإقناع الواضح، الذي لا يحيد عنه إلا هالك.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى بيان رحمته وكريم عطائه عَزَّ وجل، والتي لو تأملوها لأطاعوه وما خالفوه في شيء ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ إننا امتعنا هؤلاء وآباءهم من قبلهم بهذه الحياة الدنيا، حتى طال عليهم العمر، وهم مقيمون على كفرهم، بما يستوجب أن يلتفتوا إلى هذا الإكرام من عدم معاجلتهم بما يستحقون من العذاب. أفلا يلتفت هؤلاء الكفرة إلى ما متعناهم وآباءهم من قبلهم بهذه الحياة الدنيا، حتى طال عليهم العمر وهم مقيمون على كفرهم، فلم يحل بهم عذاب ولا وقعت بهم واقعة على كفرهم وشركهم، متجاهلين توحيد ربهم بالألوهية والملك والعبادة. فنسوا نعمتنا ومواقعها عليهم. فأصابهم الغرور، بأنها لن تزول عنهم، وهم متباعدون عن حجج الله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٠/١٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٥/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨١/١٦)

﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ أفلا يرون بأعينهم كيف ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ نتحكم بالأرض وأهلها ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ نُنقص الكفر من الأرض، بإظهارك أيها النبي على الأرض، أرضاً بعد أرض، وقرية بعد قرية، وبلد بعد بلد. فيظهر الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، مما يُوجِبُ عليهم أن يفكروا فيما رأوا من هذه الفتوحات وانتشار الإسلام.

فإنه إخبار وإعلام لهم ولغيرهم بأسلوب عظيم في سياقه ودلالة بيانه، ومقاصده، عن حال المكذبين ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ فبدأ البيان الإلهي بسؤال استنكار عن حال المكذبين فيما يرونه من تدبيره عَزَّ وجل، ومقرراً لهم به حقيقة تدبيره التي تُوجب عليهم التصديق برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أفلا يرون بأبصارهم وبصيرتهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بذلك ما فتح الله على محمد، يقول: فذلك نقصها[1] وهو ما تَغَلَّب عليه من أرض العدو.

فاشتمل السؤال على استنكار تغافلهم، وتجاهلهم لما هو محسوس بالرؤية البصرية، ومُدْرَك برؤية البصيرة، أفلم يشاهدوا بأبصارهم، ويتأملوا ببصيرتهم ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أفلم ير هؤلاء المكذبون أننا نفتح الأرض بعد الأرض لمحمد صلى الله عليه وسلم، فيظهر الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، مما يُوجِبُ عليهم أن يفكروا فيما رأوا من هذه الفتوحات وانتشار الإسلام، بأن يفتح الله تعالى أرضهم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما فتح غيرها؟ أفلا يتفكرون ويتدبرون فيما رأوا من نقص الكفر، وزيادة الداخلين في الإسلام، وهو ما تَغَلَّب عليه صلى الله عليه وسلم من أرض العدو.

ففي قوله تعالى ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بيان بنقصان الكفر من أطراف مكة التي هي مركز الأرض، والقبلة المشرفة، فتتناقص أرض الشرك بالفتوحات المتوالية. وفي هذا بشارة بظهور الإسلام وتمدده وانتشاره، وهذا من وفاء الله تعالى بقهر الكافرين من أهل الشرك وغيرهم، وإعلاء وإعزاز دينه. وأن الله تعالى قد مَكَّن نبيه صلى الله عليه وسلم من رؤية بعضاً مما وعد الله تعالى به الكافرين من الهلاك، وتمدد الدين وانتشاره في الأرض، كما ورد في سورة الرعد ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ومن فوائد دلائل السياق أن قوله تعالى ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ ما يفيد قضاء الله تعالى بهذا الأمر وإنفاذه ﴿أَنَّا﴾ وهو ضمير المتكلم، الذي يفيد التعظيم والتفخيم، والقوة

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٥٧٥)

والسلطان، وهو الله سبحانه وتعالى، وقد نسب عَزَّ وجل إنقاص الأرض إليه تبارك وتعالى، وبضمير التفخيم والتبجيل والعظمة ﴿أَنَّا﴾ وكذلك تكرار الضمير في الفعل ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ وكذلك في الفعل ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ ليفيد تأكيد الفعل بالتحقق، وتعظيم الأمر، وبيان القهر لكل من يعاند ويكابر، وأنهم مغلوبون على أمرهم وعنادهم، أفراداً وجماعات. وفي قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ توبيخ لهم على عدم اتعاظهم بما يرون ويشاهدون، فإنها آيات باهرات لمن كان له قلب واعٍ، يبحث عن الحق ويتبعه.

وفي ذلك طرد لتوهمهم من أن الأمر حولهم فقط، ولن يأتيهم منه شيء، وكذلك فيه إبطال لقوتهم، وإنذار لهم بالتفكر والتأمل والتبصر. وفيه إيقاظ وتنبيه لهم، بل وتم البيان لهم ولغيرهم بلفظ الإنقاص ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ وهو كناية عن تناقص الكفر، ليقابله زيادة انتشار الإسلام، وكذلك لفظ الأطراف ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ وأطراف الشيء ما هو حوله من أجزائه، لتعبر عن الحقيقة التي لا مست الأطراف، وأنها قادمة إلى القلب والمركز والأساس. فإنه بيان عظيم في قوة دلالاته، وعظمة براعته، وجزالة بيانه، وتراكيب ألفاظه. ليكون معجزاً حتى في سياقه، كما هو معجز في حقيقة أخباره، ووعده ووعيده، وأحكامه وتشريعه. وفي ذلك حكم وبيان على زوال الشرك من مكة المكرمة كما زال من أطرافها. وكان واجبهم أمام هذا البيان، والمشهد الحقيقي على تناقص الكفر، وحلول الإسلام محله أن يذعنوا ويعتبروا ويهتدوا.

أفلا يَعْتَبِر هؤلاء بما يرونه بأعينهم وبصيرتهم من هذا الفتح الذي يظهر منه أنه قادم إليهم، فشملت الرؤية في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ المشاهدة البصرية بالعين، ورؤية البصيرة الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم، وامتداد هذا الدين وانتشاره في أطراف مكة التي هي مركز الأرض. بل ومن دلائل البيان أن في تسمية مكة المكرمة بالأرض، وما حولها هو أطراف لها، دليل على أن مكة المكرمة هي المحور، وهي قلب الأرض ومركزها، ففيها بيت الله الحرام، وفيها الكعبة المشرفة، وقبلت المسلمين، فأصبح موقعها يُشكل لُبَّ الأرض ومركزها ومحورها، وغيرها أطراف لها. ومما يدلل على هذا المقصد هو أن انتشار الإسلام في الأطراف بدأ من المدينة بالغزوات والسرايا، كسرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سُليم بالجموم، وإلى العيص، وإلى وادي القُرَى، وسرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل، وسرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة، وسرية أبي بكر الصديق إلى نجد، وسرايا كثيرة، ثم حصل فتح مكة. ثم استمرت السرايا والغزوات. ومع كل هذا ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أو يرون أنهم سيغلبون رسوله صلى الله عليه وسلم؟ سؤال تعجب يفيد التوبيخ والاستنكار لعقولهم التي ترى أطراف الأرض تستسلم لنبيه صلى الله عليه

وسلم، أرضاً بعد أرض، ومع هذا يرون أنهم هم الغالبون. أيعتقدون ويظنون أنهم سيغلبون رسوله عليه الصلاة والسلام مع هذه المشاهد العظيمة المبهرة من الانتصار والانتشار، والدخول في دين الله تعالى؟ فهو سؤال يفيد التسخيف لعقولهم السخيفة التي تقابل الحق الذي اتضحت لهم نتائجه بالمكابرة. وفي هذا السؤال الاستنكاري البياني الكريم ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ إثبات الحقيقة التي سيؤول الأمر إليها، بأنهم مهزومون، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه منتصرون. وقد تحقق لهم الانتصار بفتح مكة. فاستنكاره من الله تعالى عليهم دليل على أنهم مغلوبون، وأن جنده عَزَّ وجل هم الغالبون.

ويستمر التوجيه من الله تعالى إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما يقوله للكافرين ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي ﴿قُلۡ﴾ يا أيها النبي للناس جميعاً ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾ إنما أحذركم من عذاب الله تعالى بما يوحيه ربي إليَّ، وليس إنذاري لكم هو اجتهاد مني، بل هو من عند الله تعالى. بما يفيد: أن الذي أُبَلِّغُكم به من القرآن هو وحي من الله تعالى. ليستوعب هذا الإنذار جميع ما بَلَّغَهُم به صلى الله عليه وسلم، وما ينذرهم به حاضراً ومستقبلاً، فالإنذار جاء بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يستوعب جميع ما قاله ويقوله وما سوف يقوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق التوجيه الكريم هو حصر وقصر جميع ما يقوله عليه الصلاة والسلام من الإنذار والنصح والتوجيه أنه وحي من الله تعالى، وذلك بأداة الحصر والقصر ﴿إِنَّمَآ﴾ بما ينفي أي اجتهاد شخصي من النبي صلى الله عليه وسلم. وبما يدل على عظيم الإعجاز البلاغي في البيان، وقوة الاحتواء والشمولية. حتى أن البيان تصدر بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ الذي يفيد أنه حتى هذا البلاغ هو مأمور به عليه الصلاة والسلام بما أوحى به إليه ربه تبارك وتعالى، وتبقى دلالة ﴿قُلۡ﴾ ضمن الآية الكريمة بياناً ثابتاً لا يتغير في القرآن الكريم.

ثم يقرر الله تعالى حقيقة تجاوب هؤلاء الكافرين الممتنعين عن الانصياع للحق الواضح المبين ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ فإن حالهم هو حال الصُّم الذين لا يسمعون دعاء من يدعوهم إلى ما ينفعهم حين يُخَوَّفُون ويُنذَرُون. بما يبين شدة عنادهم إلى درجة أن حالهم هو حال الأصم الذي لا يريد أن ينتفع بما يسمع. بل إنهم في إدبار وتولي عنه. بل من دقائق البيان الكريم أنه أوضح سبحانه وتعالى أن حالهم هذا هو مقصور عند سماع الحق الذي ينفعهم فقط، بأن هذا الصمم فقط عندما يُنذرون ﴿وَلَا يَسۡمَعُ

﴿ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ انتفاء السمع، ثم عينه حين الإنذار ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ بما يفيد مبالغتهم في العناد والتمرد، وأن حالهم عند قول الحق الذي يستوجب الاستماع والإنصات والقبول والإسراع والجري إليه، فإن حالهم منه كأنه لا يعنيهم ذلك الأمر في شيء. أما فيما عداه من الباطل فإنهم له مستمعون، ومنصتون ومقبلون عليه، ومتقبلون له، فلا صمم عندهم ولا امتناع عنه، ليفيد مبالغتهم في رد الحق الذي يُوجب متاركتهم، وعدم الاكتراث بهم. مما يفيد أن العناد والكبرياء يمنعان الإنسان من قبول الحق، إلى درجة افتعال وتصنع الصنج الذي يتناسب مع عنادهم. وبالتالي فإن الحق إذا فات الإنسان كان عليه خزي وندامة.

ومما يدل على أن امتناعهم هو امتناع مناكفة، وكبر، واستعلاء، وأنه حال إصابتهم بشيء من عذاب الله تعالى فإنهم يسارعون في الاعتراف بظلمهم ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ولئن أصاب هؤلاء المكذبين الكافرين المعرضين عن كلام الله تعالى ومواعظه شيء من عذاب ربهم عَزَّ وجل ليقولون معترفين بظلمهم ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يا هلاكنا، فقد كنا ظالمين لأنفسنا، بأن أوقعناه في الظلم الذي منعها حقها في طاعة ربها تبارك وتعالى. فدعوا على أنفسهم بالهلاك والثبور ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ لما يرون من قليل عذاب الله تعالى، فكيف لو أصابهم ما هو أشد منه، ويُلحقون ذلك بالاعتراف ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترافاً منهم بأنهم أوقعوا الظلم على أنفسهم. مع العلم أن الذي أصابهم قليل جداً من ثلاثة أوجه. فالوجه الأول: أن صفة التصاق العذاب بهم هو المس ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ والمس من العذاب هو: ملاصقة العذاب لظاهر الجسم، ولظاهر أحوالهم. والوجه الثاني: أن قوته من أدنى شيء، وهي النفحة ﴿نَفْحَةٌ﴾ فالنفح يفيد القلة. قال ابن كثير: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله تعالى[1] والوجه الثالث: هو قلة العذاب من حيث العدد ﴿نَفْحَةٌ﴾ فهي واحدة، أي لمرة واحدة؛ وليست بأكثر من ذلك، مما يفيد المبالغة في سرعة تجاوبهم، واعترافهم، مع قلة ما أصابهم، بما يدل على ضعفهم وعدم تحملهم ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأذعنوا، وحصل لهم الذل، والاعتراف بأنهم ظالمون لأنفسهم، فأوقعوا الظلم على أنفسهم ولم يُوقِعُوه على غيرهم ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وهو الدعاء بالهلاك والثبور لما يرون من قليل عذاب الله تعالى، فكيف لو أصابهم ما هو أشد

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٩/٣)

منه ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فيعترفوا بأنهم أوقعوا الظلم على أنفسهم، حين اتصافهم بهيئة الأصم الذي مبناه الكبر والتعالي، فأعرضوا عن كلام الله تعالى ومواعظه، وعن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالوحي.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم عدله في الحكم والحساب والجزاء ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ فبين سبحانه وتعالى أولاً: صورة العدل وحقيقته، من خلال ما يحكم به من موازين العدل يوم القيامة ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يضع الموازين المتصفة بالعدل، الذي هو ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ أي: الموازين العادلة التي تستقصي ما كان، حتى وإن كان أقل من مثقال ذرة من أعمال العباد، وأن صفة هذه الموازين أنها عادلة، لا يشوبها شيء من الزيادة ولا النقصان ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ وحينها لن تُظلم أي نفس شيئاً مما عملت، سواء من خير أو شر، فلا يُنقص من إحسان المحسن، ولا تزاد سيئة على مُسيء. فالظلم ممتنع عند الله تبارك وتعالى، إلى درجة الإتيان بكل أعمال الإنسان حتى وإن كانت مثقال الحبة الصغيرة ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ فتُؤتى بأعمال الإنسان جميعها، حتى ما كان خفيفاً منها، وحقيراً في شأنه ووزنه عند الناس.

والمثقال هو الوزن، الذي يوزن به الشيء، وهو المقدار الذي يماثل الموزون في الثقل. حتى ولو كانت حبة مفردة واحدة، بل وحتى إن كانت متناهية في صغر حجمها، وخفة وزنها وهي الخردلة، لأن الخردلة هي: الحبة الدقيقة الخفيفة الصغيرة جداً. وفي هذا مبالغة في دقة الإحصاء، ودقة العدل، ودقة الاستيفاء ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ فإن الله تعالى يأتي بها ولا يخفيها بإسقاطها لكونها صغيرة وحقيرة لا يُؤبه بها. مما يدل على كمال العدل وانتفاء الظلم بتاتاً. وهذا دليل على قوة سلطان الله تبارك وتعالى، وعظيم قدرته على إحصاء كل أعمال بني آدم، ما كان خيراً، وما كان شراً. بما يُعَلِّم المؤمن الحذر والوقاية بالتوقي، وبأن يستقيم في شأنه كله، وأن يتجنب الشر كله، صغيره وكبيره، وأن يعمل الخير مهما كان حقيراً وقليلاً وصغيراً في عينه، فلا يحقراً من المعروف شيئاً، فإنه داخل في الموازين عند الله تعالى. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ فإن الله تعالى يأتي بها، لكمال عدله.

ثم يبين الله تعالى ما يؤكد كمال عدله بقوله عَزَّ وجل ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ وكفى العباد بكمال علمنا لأعمالهم إحصاء وحفظاً لها ووفاء. وبالتالي كفى بنا محاسبين ومجازين كل واحد بما قدم في حياته الدنيا، والتي أثبتناها وحسبناها له عداً دقيقاً، فلا يفوت منه شيء أبداً. وبالتالي فإنه لكمال العدل الذي يجدونه عند ربهم فإنهم لا يحتاجون في قرارة أنفسهم لغير ربهم تبارك وتعالى، فكفى به حاسباً ومجازياً. ففي إثبات الكفاية لنفسه تبارك وتعالى ما يثبت رضا العباد به رضاً عن كمال قناعتهم بعدله سبحانه وتعالى.

وتفيد جملة ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ كمال المدح والثناء على الله تعالى، بأن حسابه عَزَّ وجل ذروة العدل وكماله ومنتهاه. كما أن هذا البيان الختامي العظيم قد ورد بصيغة التفخيم والتعظيم بضمير المتكلم ﴿بِنَا﴾ بما يفيد العظمة. ثم ورد كذلك في كلمة ﴿حَـٰسِبِينَ﴾ التي اشتملت على ضمير الجمع الذي يفيد التعظيم والتفخيم. وهو كذلك ربنا تبارك وتعالى: عظيم في ذاته، وفي أعماله، ومحاسبته، وعدله، ومجازاته، وفي عظيم سلطانه، وفي إرادته، وفي تدبيره، وفي رحمته ومغفرته، وفيما خلق، وفي تشريعه عَزَّ وجل، وفي كل شيء هو عظيم سبحانه وتعالى. حتى أن دلالة ﴿وَكَفَىٰ﴾ تفيد كمال وتمام الكفاية التي يستغنى بها عن غيرها، فلا حاجة للعباد في غيره وعدله ومحاسبته، فلا يتمنى العبد غير ربه أن يحاسبه، لعدله ورحمته، ولمغفرته، ولكريم عطائه وإحسانه ومجازاته للمؤمنين. وكذلك حتى الكافر، فإنه لا يعذبه إلا بما يستحق. فكفى بالله تعالى حسيباً. اللهم عاملنا برحمتك ومغفرتك.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

بعد أن فَصَّل تبارك وتعالى دلائل النبوة والتوحيد والحساب والجزاء، وأفحم المشركين بالرد عليهم وعلى منطقهم الجاهلي، انتقل البيان الكريم إلى قصص بعض الأنبياء، دعماً للنبي صلى الله عليه وسلم، وتقوية للمؤمنين، وزيادة في تعريفهم بأحوال الأمم والمرسلين، وخطاباً للناس أجمعين بما يُوضح لهم ما يتعظون به ويعتبرن، وما يلزمهم من الإيمان بما جاءهم من الحق على رسوله الأمين، محمد صلى الله عليه وسلم. فيوضح ويبين تبارك وتعالى ما زود به موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام من الحجج والبراهين، والهدى الذي يهتدي به المتقون ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فلقد كان مِنَّا أن أنزلنا على موسى وأخيه هارون ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: التوراة، وسماها تبارك وتعالى بالفرقان كما هو القرآن العظيم، لما فيها من التفريق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الحلال والحرام، والغي والرشاد. وكذلك وصف التوراة

سبحانه وتعالى بالضياء ﴿ وَضِيَآءً ﴾ فيستضيء من أخذ بالتوراة والتزم بها طريق الحق والهدى، لما فيها من بيان شريعة الله تعالى، وحلاله وحرامه، وما ينفعهم وما يضرهم. فيظهر بها ما يفارقها، وما يضادها من الباطل والضلال المظلم بسواده، وسواد منهجه، وما يُفضي ويؤدي إليه من العذاب وسوء المصير.

ثم ذكر سبحانه وتعالى صفة عظيمة أخرى للتوراة ﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: تذكيراً للمتقين بما ينفعهم، ويزيدهم إيماناً وعملاً صالحاً، وبُعداً عما يُغضب الله تعالى، مما حرمه أو نهى عنه. مما يفيد ويبين امتلاؤها بالمواعظ والترغيب والبيان، والترهيب بما يقوي عزائم المتقين على الطاعة والامتثال. وفي تخصيص المتقين ﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ما يفيد أن المتصفين بالتقوى هم الذين ينتفعون بها، لأنهم يخفون ربهم، ويرجونه، ويتمسكون بالحق، ويبتعدون عن الباطل، وأما من أعرض فلا ينتفع بما أنزل الله تعالى. وقد بين وأكد ذلك سبحانه وتعالى في الآية التي بعدها بأن من صفات المتقين أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ فإن من صفات المتقين الذين ينتفعون بما أنزل الله تعالى أنهم يخافون ربهم ولم يروه، ويخافون عذابه ولم يروه، ويخافون ربهم وعقابه حتى عندما لا يراهم أحد من البشر، فخشيتهم لربهم ملتصقة بهم كل وقت وحين، في السر والعلن.

ومن صفاتهم كذلك أنهم ﴿ مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ فهم من شأن يوم القيامة التي هي الساعة وأحداثها وجلون خائفون. وفي تخصيص يوم القيامة من بين مواطن الخوف لأنها أعظم مواطن الخوف. وكذلك العناية بشأنها. في حين أن الكافرين في التهاء وانشغال عنها. ليظهر بذلك سلوك المؤمن التقي في الحياة الدنيا، بأن ضابطه هو الخوف من الله تعالى، وليس من غيره، فهذا حالهم أين ما كانوا، ومهما أوغلت بهم الخلوات عن أعين الغير، فإن ضابطهم هو الخوف من الله تعالى، وما هم مُقبلون عليه من شأن الساعة وعظيم أمرها، فاستقام سلوكهم في الحياة. مما يبين أن أقوى مجالات التربية هي غرس التقوى في النفوس، فإنها ضابط لسلوك الإنسان حتى في الخلوات.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى منزلة التوراة، مَجَّدَ اللهُ تبارك وتعالى كتابه القرآن العظيم بثلاث صفات ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي: وهذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ذكر لمن تذكر به، وموعظة لمن اتعظ به، فأشار إليه سبحانه وتعالى باسم الإشارة ﴿ وَهَٰذَا ﴾ وفي الإشارة إليه باسم الإشارة ﴿ وَهَٰذَا ﴾ تعظيم ورفعة للقرآن العظيم، وبيان لمقامه ومنزلته، لأن تلك الأوصاف الجليلة العظيمة لا تنطبق إلا عليه وحده، فقد انحصرت تلك الأوصاف فيه، حتى أصبح لعلو مقامه في النفوس أنه لا يذهب الذهن إلا إليه بهذا النعت وهذا الوصف والوسم البليغ والمجيد الجليل.

فهذا القرآن الذي أنزله الله تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم موصوف بثلاث صفات:

فالصفة الأولى: أنه ذكر ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ أي: وهذا القرآن العظيم ذكر لمن تذكر به، وموعظة لمن اتعظ به، وشرف ورفعة لمن أخذ به، إذ تذكر آياته ومواعظه وقصصه وكل ما فيه بما يجب الأخذ به من الحلال، والهدى والحق، وتحريم الحرام وبيان الباطل والضلال، وفيه تفاصيل شرعه الحكيم. وورد لفظ الذكر بصيغة النكرة، ليدل على عموم منافعه وخيراته التي استوعبت كل ما يحتاجه العباد من البيان.

وأما الصفة الثانية: فإنه مبارك ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ تتحقق لكم به البركة الشاملة لنمو الخير في جميع شؤونكم، وقد وردت البركة بصيغة النكرة، التي تفيد عموم البركة، والتي تستوفي الخير كله، فتلاوته بركة، وشرعه بركة، والأخذ به بركة، وأينما حل القرآن فقد عمت به البركة، وانتفى به السوء والضر، وحصل به الشفاء والعافية. فكم من مريض عافاه الله تعالى من مرضه بالقرآن، وكم من مؤمن حفظه الله تعالى من شر ما خلق بالقرآن، تفر منه الشياطين، وتحل به الملائكة، ويرفع الله به المؤمن في الدنيا والآخرة.

وأما الصفة الثالثة: فإنه مُنَزَّل من عند الله تعالى ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ وفي كلمة ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ما يفيد أنه من عند ربنا جَلَّ شأنه، وورد التنزيل للقرآن بصيغة التعظيم والتفخيم والتبجيل من وجهين: الأول: كونه من عند ربنا جَلَّ شأنه، والثاني: تفخيمه بضمير المتكلم وهو الله سبحانه وتعالى، والذي ورد بصيغة ضمير الجمع، فأعطى دلالة التعظيم للمتكلم عنه. وهذه تزكية للقرآن الكريم، وتمجيد ورفعة ومدح له، بأنه مُنَزَّلٌ من الله تبارك وتعالى، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثم بعد هذا البيان يوجه سبحانه وتعالى سؤال استنكار وتعجب لمن تجافى عن القرآن الكريم، ولم يؤمن به ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ فهل أنتم جاحدون لهذا القرآن العظيم بعد البيان بالأدلة التي تعجزون أمامها، والتي منها عجزهم عن أن يأتوا بمثله. أفتنكرونه وهو في غاية الوضوح والجلاء والإعجاز من كل وجه. وفي هذا السؤال ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ إفادة التقرير بأن القرآن العظيم قد اشتمل على كمال الإعجاز، في لفظه وسياقه، وفي مراده وأهدافه، وفي تشريعه وأحكامه، وفي وسائل ترغيبه وترهيبه، وفي قصصه ومواعظه، وفي كل ناحية ووجه قد ظهر الإعجاز فيه. وأفاد قوله تعالى ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أن من أنكره فقد أنكر ما عرف من الحق، وأيقن أنه من عند الله تعالى، وأنه لا يمكن لبشر أن يأتي بمثله من عند نفسه، لقصور الإنسان عن ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى رسوله موسى وهارون، وبيان منزلة التوراة، ثم ذكر عَزَّ وجل منزلة كتابه القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، انتقل السياق الكريم إلى بعض تفاصيل قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومجادلته ومحاورته لقومه بشأن ما هم عليه من الشرك، وبدأ سبحانه وتعالى البيان بقوله العظيم الكريم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ بدأ تبارك وتعالى بيانه لقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بلام القسم الملتحق بحرف التأكيد وكمال التحقق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ فهي مؤكدة لما بعدها من البيان، بكمال تحققه كما تم الإخبار به، كما أنها سُبِقَت بلام القسم، إمعاناً وزيادة في التأكيد ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ فلقد آتينا إبراهيم ﴿ رُشْدَهُۥ ﴾ أي: صلاحه وهداه. وهو: الهدى والصلاح والتوفيق والسداد في جميع شؤونه، والتي أبرزها في شؤون الدعوة، التي مرتكزها: الدين والحكمة والحوار، بما يفيد امتناع الغي والجهل عن إبراهيم عليه الصلاة واسلام تماماً، مما يفيد أنه لم يجهل على قومه في دعوته لهم. وهي تزكية عظيمة من الله تعالى لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

بل أسند سبحانه وتعالى الإتيان لهذه النعمة إليه ﴿ ءَاتَيْنَآ ﴾ إظهاراً وإبرازاً وتعظيماً للرشد ومكانته ومنزلته في الصلاح، ورفعة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام. بما يفيد أن الله تعالى إذا تولى عبده بالكمال، كَمَّلَه وسدده، ومن ذلك الرشد. فليطلب المؤمن السداد والتوفيق والرشد من ربه المنعم سبحانه وتعالى، فهو الذي يملك منحها وعطائها. وفيه دليل على منزلة الرشد ومكانته، وما يتحقق به من صواب المنطق والرأي في القول والعمل.

وقد كان شأن إبراهيم قبل رسالة موسى وهارون عليهم السلام، ومن قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حيث نص عليها تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ فجملة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ حددت وعَيَّنَت موقع وزمن رسالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنسبة إلى رسالتي

موسى عليه الصلاة والسلام، ورسالة وبعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: من قبل موسى وهارون[١] ومن سعة دلالات البيان أن موقع ﴿مِن قَبۡلُ﴾ يستوفي دلالة أخرى، وهي: آتاه رشده من قبل نبوته، ومن قبل بلوغه، أي منذ صغره، بمعنى هديناه صغيراً. قال مجاهد: هداه صغيراً[٢] وقاله ابن عباس رضي الله عنهما [٣] فموقع ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أعطى كلا الدلالتين من غير تضاد ولا تضارب ولا امتناع، وهذه من بلاغة وإعجاز السياق الذي جمع موقعها دلالتين صحيحتين متوافقتين، غير متعارضتين، فلا تمانع بينهما.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى عظيم علمه، وذلك بالمزيد من البيان عن مكانة ومنزلة خليله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقال عَزَّ وجل ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: عالمين بسريرته وكفاءته وأهليته ويقينه وإيمانه وتوحيده لربه تبارك وتعالى، وبشؤونه وأحواله وسيرته، فعلمنا أنه الجدير بإيتاء النبوة من بين غيره من الناس، فكان جديراً بأن آتيناه رشده، نعمة من الله تعالى وفضلا. مما يدل على تميزه على غيره بما خصه الله تبارك وتعالى به من الاصطفاء والرشد. كما يدل على أهمية الاستقامة، فإن الخير كله مترتب عليها في مسيرة العبد.

وبعد أن أوضح وبين سبحانه وتعالى مميزات وخصائص رسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أورد جَلَّ جلاله الخصائص العملية لإبراهيم، التي تنم عن كمال الرشد في شخصيته عليه الصلاة والسلام ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فاذكر أيها النبي للناس حين خاطب إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه وقومه بعزيمة واقتدار ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فبالرغم من أنه يدرك مرادهم من تلك التماثيل إلا أنه يسألهم سؤال استثارة لعقولهم نحو التأمل والتفكر. وكذلك هو سؤال المستفهم لدقائق الحقائق ممن لا يجهلهم، ولا يجهل تماثيلهم، ولا يجهل صنيعهم معها، واعتقادهم فيها، ولكنه سؤال استفتاح واستثارة للحقائق، ولبعث الفكر في تأمل ذهول عقولهم عن حقائق معبوداتهم الباطلة، ولكن بأسلوب حكيم.

وبدليل أنه سماها بحقيقتها، أنها تماثيل، في حين أن تسميتها منهم لها أنها آلهة ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ إمعاناً في شد الانتباه والذهن إلى أصلها، بأنها مجرد تماثيل، والتمثال هو: المصنوع بمشابهة غيره. قال القرطبي رحمه الله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٤٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٢٩٠)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٤٨)

تعالى: أي: الأصنام. والتمثال اسم موضوع للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله تعالى[1] فيكون اسم ذلك الممثل للشيء تمثال. فهو سؤال تعجب واستثارة ولكن بأسلوب حكيم. لا يستثير عداوتهم بقدر ما يستثير عقولهم نحو الحق والحقائق.

ثم وصف تعاملهم في عبادتهم لتلك التماثيل بأسلوب رشيد ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فوصف عبادتهم لها بالعكوف، الذي يعني التزام المداومة والمواظبة على ترضيها إلى درجة أنكم حبستم أنفسكم عليها، وكأنها هي التي تعطي وتمنع. وفي هذا البيان لهيئتهم مع تماثيلهم ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ ما يلفت انتباههم إلى مبالغتهم في التعامل معها، ووصف سلوكهم معها بأنها أخذت منكم التعظيم الذي تخلوا منه أصلاً، لأنها تماثيل، وتعلقتم بها تعلق الراغب فيها والخائف من عقابها، وهي تماثيل، وعبدتموها وأنتم الذين صنعتموها بأيديكم. فكيف يكون منكم ذلك التقديس لما صنعتموه بأنفسكم وبأيديكم. فإنه سؤال يستثير العقل ويحفزه نحو التأمل والتفكر، والعدول عن الباطل إلى الحق.

وبأسلوبه الحكيم الرشيد لم يستثر غضبهم، وإنما استثار عقولهم حتى أجابوه بإجابة من استعلم منهم حقيقة، واستفسر منهم استفسار المستوضح الجاهل بها، والمستوضح لصورتهم وعكوفهم على تلك التماثيل، وعن علة ذلك الانهماك في العكوف عليها، فأجابوه بما حكاه الله تعالى عنهم ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فلم يكن عندهم مستند غير التقليد لمن سبقهم، فأسندوا عبادتهم وعكوفهم لها بناء عل ما وجدوا عليه الآباء قبلهم عابدون ومتقربون لها. وبالتالي كانت عبادتهم لها من باب الاقتداء والتأسي بما كان عليه الآباء. مما يفيد خطورة التقليد من غير هدى وشريعة وبيان، فإن في ذلك مهلكة إذا كان التقليد على باطل.

ولما أسندوا فعلهم على التقليد والتأسي لآبائهم خاطبهم إبراهيم بما حكاه الله تعالى عنه عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فقد واجههم بالحكم على فعلهم بعد اعترافهم ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ﴾ فبدأ الخطاب بحرف التأكيد لما بعده من بيان ﴿لَقَدْ﴾ ثم خصهم بما هم عليه وآباءهم ﴿كُنتُمْ﴾ التي تفيد الاستغراق في الباطل منذ أن بدأتم ونشأتم. ثم أكد ذلك بضمير المخاطب ﴿أَنتُمْ﴾ أنتم لا غيركم، لإفادة المبالغة في التخصيص والتحديد بما يأتي من الوصف والتحليل والنتيجة لهذه العبادة الباطلة. ثم أضاف إليهم من سبقهم ممن اقتدوا بهم، وهم الآباء ﴿وَءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: وكذلك معكم آباؤكم ﴿فِى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٦/١١)

﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أنكم جميعاً في أمر من الضلال والباطل والفساد الواضح والبائن الذي لا يحتاج له بيان وإيضاح. لأن العاقل يتنبه للباطل وبطلان هذا الأمر. فأنتم وهم مشتركون في هذا الضلال الواضح الجلي. فقد ذهبتم عن سبيل الحق، وحُدتُم عن قصد السبيل والطريق المستقيم في شأن العبادة وما تعبدون. فكان واجبكم هو التبصُّر والتفكر والتأمل، لأن حقيقة عبادتها ظاهرة وبائنة أنها باطلة. كما يدل تقليدكم لآبائكم في جهلهم أنكم لم تكونوا أعقل منهم، بل أنتم مثلهم. وفي هذا استثارة لعقولهم نحو الإقلاع عنها، والاتجاه إلى الله تبارك وتعالى.

ثم ردوا وأجابوا بصيغة الاستغراب ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ لقد سألوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام سؤالاً مفاده: أنهم استعظموا قوله في حقهم وحق آبائهم وآلهتهم، حتى سألوا سؤال الشاك، فكأنه باغتهم بالسؤال الذي أعادهم للتفكر والتأمل ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ هل هذا الذي جئتنا به، مما أفصحت عنه وبينته لنا، هل هو الحق الذي يجب علينا الأخذ به، واتباعه؟ فهل أنت جاد فيما تقول؟ ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أم أنت من اللاهين المازحين بالمداعبة، الذين لا يقصدون ما يقولون؟ مما يدل على قوة حجته عليه الصلاة والسلام التي جعلتهم يستنبئون منه عن حقيقة قوله عليه الصلاة والسلام. فهو سؤال يُفهم منه حيرتهم، بأنه أدخل الريبة والشك في معبوداتهم وعبادتهم.

فأجابهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام مباشرة بالحق، مبتدئاً إجابته بإثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فبدأ إبراهيم عليه السلام جوابه بأن صَدَّرَهُ بنفي صحة ما هم عليه من العبادة، وإثبات قوله لهم، حيث صَدَّرَ كلامه بحرف ﴿بَل﴾ الذي يعني: لكن. فيقرر به بطلان ما قبله الذي تضمنه قولهم، وإثبات ما بعده، والرد عليهم به، فأضرب عن قولهم ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ وأفسده بما بعده من الحجة التي هي ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فربكم الحقيقي هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فلفت انتباههم لما يرونه ويحسونه ويتعايشون فيه. فالذي خلقكم هو الذي خلق السماوات والأرض، وبالتالي هو ربكم وربها. وهذا استدلال بالآيات الكونية، ثم ذكر لهم الدليل الآخر الذي يحمل دلالة الإرسال له من الله تعالى إليهم ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فيقرر لهم أنه يشهد على هذه الحقيقة بأنها هي الحق، وليس التماثيل التي أنتم عليها عاكفون. وأبان لهم أن الشهود على ذلك كثير، وأنه واحد منهم ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فأورد الشهود بصيغة الجمع، ليفيد الكثرة، وهو واحد

من هؤلاء الشهود. وكذلك هو عام وشامل، ليشمل الملائكة وكل موحد لله تعالى من البشر، والخلق أجمعين. وأنا على هذه الحقيقة واحد من الشاهدين، ليؤكد لهم أن هناك من يشهد بأن ربكم هو الله سبحانه وتعالى، الذي هو رب السماوات والأرض ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: الذي أنشأهن، وما فيها من مخلوقات علوية في السماء، وسفلية في الأرض. وبالتالي أن هذه التماثيل جامدة لا تخلق ولا تتحرك، ولا تدفع عن ذواتها شراً، ولا تجلب لنفسها خيراً، فكيف تعبدون العاجز، ولا تعبدون القادر الذي خلق هذا الكون العظيم الفسيح؟ فهو استدلال يدل على قوة الرشد التي زكاه الله تعالى بها عليه الصلاة والسلام.

ثم انتقل إبراهيم الخليل في بيانه وتأكيد بطلان أصنامهم إلى مَحَاوِر عجزها، وعدم قدرتها على نصرة نفسها، ودفعها لِمَا يستوجب منها أن تدفعه ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ فأقسم بالله تعالى بقوله ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ تأكيداً لعزمه على المكر بها ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ فبالله تعالى لأحتال بحيلة لأصنامكم، فَأُلْحِقُ بها الكيد الذي يُظهر لكم عجز تماثيلكم، ويدل على ضعفها وعجزها، وبأنكم تعبدون من دون الله أصناماً عاجزة عن دفع الأذى عن نفسها، فكيف تدفعه عن غيرها. ولم يحدد لهم نوع الكيد. مخبراً لهم أن وقوع الكيد كائن في الوقت الذي يتولون فيه عن تلك الأصنام إلى شؤونهم وأمورهم، أو إلى اجتماعهم في أعيادهم ونحوه، أي بمعنى: وقت خلوتها منهم. بما يدل على أن نوع العمل الذي ينوي عمله فيما لو عمله بحضرتهم لمنعوه. فخبَّأ نوع العمل، حتى لا يعرفوه فيمنعوه ابتداء، ويحولون بينه وبين إنفاذه، فتظاهر بأنه مكر منه، أي: حيلة مخفية ماهيتها ونوعها، إذ أنه لم يخطر ببالهم أنه سيعمد إلى تحطيمها، لاستحالة ذلك في عقولهم وتصوراتهم. لأنهم لا يعتقدون أن هناك من يتجرأ على هذا الفعل. ففي إخفاء نوعه هو نوع من الكيد الذي وعدهم به، وفي إظهاره لمراده حتى لا يتفاجؤوا بمكره، وهو كيد يهيئهم له، فيدركوا أنه واثق من صحة كلامه وقوله لهم، وأنه مؤيد من ربه تبارك وتعالى. فكان حكيما في الذب عن توحيد الله تعالى، وعن الدين عموماً. وهذا من قوة رشده في إظهار بطلانها عملياً، بعد أن أظهره لهم عقلياً، وبياناً وتعليماً وإفصاحاً.

ثم انتقل رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى مرحلة التنفيذ بما وعدهم وتعهد به من المكر حيال أصنامهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فجعل الأصنام التي يعكفون على عبادتها ﴿جُذَٰذًا﴾ أي: قطعاً صغيرة، وذلك بتحطيمه لها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ولكنه ترك أكبرهم، حتى يستوفي به إثارة عقولهم نحو تأمل ما سيحتج عليهم به ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لعلهم يعودون إلى هذا الصنم، فيرجعون إليه، ويتفكرون في علة تكسير جميع الأصنام إلا كبيرهم الذي بقي سليماً على حاله، ليكون مدار تساؤل وتفكر. فكانت علة ترك أكبرهم حتى يُعيدهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى هذا الكبير، بالرجوع إليه، إما بسؤاله عن الذي حدث لبقية الأصنام. فيتبين لهم على وجه الحقيقة أنه عاجز عن أن

يخبرهم بما حدث، فيتكلم ويُفصح عن حال المجاورين له من الأصنام، وما وقع بهم حتى صاروا جذاذاً. وكذلك عاجز عن أن يدفع الأذى عن المجاورين له من الأصنام. وبالتالي كيف تعبدون عاجزاً عن رَدّ الأذى، وعاجز عن إخباركم وإعلامكم بما حصل لمن يجاورونه من الأصنام، أو لعلهم يعتقدون أنه هو الذي حطم مجاوريه من الأصنام. فحتماً سيثير ذلك الأمر في عقولهم أموراً كثيرة، وكل واحد منها يدل على بطلان عبادتهم. وهذا من دهاء الرشد الذي وهبه الله تعالى لعبده وخليله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ
﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ
إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ
يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾
أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن
كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ
ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ت

فاستكمالاً للحوار الذي دار بينهم وبين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فإنهم تساءلوا فيما بينهم عن تجذيذ أصنامهم بالتحطيم والتهشيم لها ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فتساءلوا: من هو الذي فعل هذا التجذيذ بهذه الآلهة. فقد فعل ما لم يكن له فعله وإتيانه. ثم وصفوه بالظالم لنفسه، ولأصنامهم ولهم، لأن في وصفهم لمن حطمها أنه من فئة الظالمين، دون تحديد نوعه، فإنه يشمل جميع أنواعه المتعددة. كما أسندوا فعل تحطيم وتهشيم الأصنام إلى عاقل من الناس، ولم ينسبوه إلى كبيرهم، فانحصر الفعل في جنس الإنسان. مما يدل على أنهم صُدِمُوا بذلك الفعل. وهنا قال بعضهم لبعض كما بينه القرآن الكريم ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ سمعنا ﴿ فَتًى ﴾ أي شاباً في مرحلة الفتوة والقوة والجلادة ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ أي: يذكر الالهة بالتنقص والمكر لها. قاصدين ذكره لها بالعيب والسوء، وبالكيد، وهو قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ مما يدل على أن هذا القول من نبي الله إبراهيم عليه السلام كان عند بعضهم دون بعض، وليس في اجتماعهم أجمعين. ولذلك ﴿ قَالُواْ

سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ثم ذكروا اسمه تحديداً بأسلوب الإهمال وعدم العناية ﴿ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: دلالة على أن المنتصبين للبحث في القضية لم يكونوا يعرفون إبراهيم، أو أن الشهداء أرادوا تحقيره، بأنه مجهول لا يُعرف، وإنما يُدعَى أو يُسمَّى إبراهيم، أي ليس هو من الناس المعروفين[1] وهذا يدل على أنهم غير موقنين وجازمين في تهمتهم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإنما هو في موقع الظن والشك منهم، وليس تقريراً مقطوعاً به، أنه هو الفاعل المجزوم بفعله. ولذلك عمدوا إلى إحضاره وسؤاله على مشهد من الناس ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ فأحضروا إبراهيم هذا الذي ذكر الآلهة بسوء، لعل الناس يشهدون عليه بإقراره على ما فعل ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فأحضروه أمام الناس، ليكون بمرأى منهم، فيشاهدونه بأعينهم، والعلة في أن يكون على رؤية من الناس هي ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ لعلهم يشهدون عليه بما فعل بالآلهة، فتكون شهادتهم بينة وحجة عليه ثابتة. وكذلك تتضمن دلالة المشاهدة أن يشهدوا عقابه وما يُصنع به، إن ثبت ذلك عليه.

وعند حضور إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمجمع القوم، وَجَّه لَهُ السائلون ما ذكره الله تعالى عنهم ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ هل أنت الذي فعلت هذا التجذيذ بآلهتنا يا إبراهيم؟ فوجهوا السؤال استنطاقاً له أمام الناس، حتى يأخذوه بفعله، مما يدل على تحرزهم من أن يقيموا عليه حكمهم دون اعتراف منه، حتى لا يُعابوا من بقية الناس على حكمهم دون إثبات. لأنه واحد من القوم. وهنا أحالهم إبراهيم بطريقة فذة وحكيمة تبين علة استثنائه لكبيرهم من التجذيذ والتهشيم ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ فبدأ الجواب بنفي التهمة عن نفسه وإلقائها على أكبر الأصنام الذي بقي على حالته، حيث ابتدأهم وابتدرهم بأداة النفي ﴿ بَلْ ﴾ التي تنفي حكم ما قبلها، وتُثبت الحكم لما بعدها، وهو ﴿ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ فإن الذي حطم الأصنام وجعلها جذاذاً هو هذا الصنم الكبير، الذي اعتدى عليها، فجعلهم حطاماً. وفي هذا استثارة لعقول الجميع، مستدركاً عليهم سلامة عقولهم الغائبة، وفضحاً لغبائهم، وجهلهم. وهو كيد عميق الأثر والبيان في كشف الحقيقة، وإبطال الباطل؛ وإظهار الحق للجميع، وبطريقة عملية واقعية. بما يدل على أن كبيرهم أراد أن يتفرَّد بالعبودية والألوهية لوحده، ليبين لهم أن تعدد

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩١/٧)

الآلهة، هو تعدد للإرادة، والاختلاف فيها بين الآلهة، ويكون الصراع بين الآلهة قائم ومحتدم، مما يُبْطِل به تعدد الآلهة، وأن الإله لا بد وأن يكون واحداً.

ثم أردف وعَقَّبَ على التهمة التي ألحقها بكبيرهم أن وجَّه لهم ما يتأكدون به عن تهمته لكبيرهم ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ فاسألوا الأصنام المحطمة التي أصبحت جذاذاً، لأي شيء اعتدى عليها وحطمها هذا الإله الكبير، لتعرفوا سبب وعلة تكسيرهم من أنفسهم ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ هذا في حالة نطقهم إن نطقوا. وفي جملة ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ اثبات لهم بأنه يعرف أنها لا تنطق، ولا تتكلم، لأنها تماثيل من صنع البشر. فيستدل بذلك على كمال وتمام عجزها، وأن عجزها، وصمتها، وانتفاء قدرتها، دليل على عدم نفعها، وأنها لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تجلب لذاتها نفعاً، فكيف يكون حالها مع غيرها ممن يعبدونها ويرجونها، ويتقربون إليها بالتذلل. ويطلبون رضى ومرضات من لا يعقل ولا يعرف عن ذاته شيئاً. فلسان حاله يقول لهم: ألا تعقلون؟ أتعبدون تلك الأصنام التي ظهر لكم أنها عاجزة هذا العجز الظاهر المبين. فقد أوقفهم أمام حقارة عقولهم ومهانتها. فإنه استدلال رشد على كشف وبيان الباطل بالمنطوق والمعقول الذي لا يختلف فيه العقلاء، وبالتالي يتقرر أنه لا ينصر ويؤيد ذلك الباطل على الحق الواضح الجلي إلا مكابر. وبالتالي لا نُصرة للباطل، وأن الباطل محزوم من كل وجه.

وهنا قادهم هذا الاستدلال العملي إلى إدراك الحقيقة، ومعرفة بطلان عبادتهم وشركهم ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فرجعوا إلى قلوبهم وعقولهم بالتأمل والتفكر والتدبر واللوم ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ والرجوع إلى النفس دليل على قوة التأثر بالحق المؤَيَّد بالحقائق الناصعة، فعادوا إلى أنفسهم بالملامة، ورجع بعضهم إلى بعض باللوم، وكانت نتيجة ذلك الرجوع إلى النفس هو قولهم بما قاله الله تعالى عنهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقال بعضهم لبعض: فإنكم قد ظلمتم أنفسكم بعبادتكم لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: إنكم معشر القوم الظالمون هذا الرجل في مسألتكم إياه، وقيلكم له: من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرتكم فاسألوها[1] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتفطن لصحة حجة خصمه. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: من لا ينطق بلفظه، ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف ينفع عابديه، ويدفع عنهم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠١/١٦)

البأس، من لا يَرُدَّ عن نفسه البأس[١] مما يدل على اعترافهم بخطأ عبادتهم، وأنهم مغلوبون بالحجة الباهرة الظاهرة التي ينتفي بها الباطل الذي هم عليه من عبادتهم للأصنام. وبذلك يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام على حق وصواب فيما قاله وبينه لهم. فتكون النتيجة أنكم ظالمون لهذا الفتى: إبراهيم الذي أعادكم للحق. وظالمون لأنفسكم بعبادتكم ما وجدتم عليه آباءكم مما لا يسمع ولا يعقل، وعاجز عن رَدّ البأس عن نفسه.

ثم بعد اعترافهم بظلمهم لأنفسهم، عادوا إلى ما هم عليه من الضلال، فانتكست عقولهم وأفكارهم بعودتهم إلى ضلالهم وظلمهم ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فقد تبدد ما تحصَّلُوا عليه من إدراك الحق؛ بسبب الإصرار والعناد الذي قادهم إلى الجحود، والبحث عن مسوغات لشركهم، حيث كان حالهم هو انتكاسهم على رؤوسهم ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ فحالتهم كما يبينها ربنا تبارك وتعالى أنهم انقلبوا من حال الاعتراف بالحق إلى إنكاره، فأصبحت صورتهم وهيئتهم هي صورة المنتكس. إذ أن الانتكاس لا يكون إلا بعد الاستقامة والسلامة، كانتكاس المريض بعد ظهور الشفاء عليه. فالانتكاس هو لمن عاد إلى حالته السابقة بعد الصحة والعافية، وهي صورة الشيء الذي جُعِل ما حقه العلو في الأسفل، وما حقه الأسفل جُعِل في العلو. فالانتكاس هو الرجوع إلى الحالة الرديئة، بعد الصحة والعافية، ليصبح الذي أسفله أعلاه، والذي أعلاه أسفله، فأصبح الحق هو الأسفل في عقولهم ورؤوسهم، والباطل هو الأعلى في عقولهم ورؤوسهم. فهي صورة بديعة في الوصف والبيان. إذ أن الانتكاس لا يكون إلا بعد الاستقامة والسلامة. مما يدل على أن قولهم ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هو تسجيل وتأكيد لاعترافهم بالحق الذي أوضحه لهم رسول الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فإنكم أنتم الظالمون حين عبدتم العاجز الذي لا يتكلم، ولا يصد عن نفسه الأذى، ولا يحميها من الشر. ثم بعدها انتكسوا إلى باطلهم بعد أن اعترفوا بالحق، مع الندم والأسف عل ما كان منهم من الباطل، بعبادتهم للتماثيل التي صنعوها بأيديهم.

ومن دقائق البيان أنه قد تم تغييب الفاعل في جملة ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ وذلك بعدم إظهاره. فقد غاب إظهار الفاعل الذي جعل رؤوسهم تنتكس، ليدل على تعدده وتنوعه، فالفاعل الذي دعاهم للانتكاس هو: محبة الانتصار لأنفسهم، ومحبة الانتصار لما كانوا عليه، وخشية أن يرفعوا ويُعْلُوا شأن إبراهيم عليهم. وكذلك هو الخجل والأسف الذي أطرق برؤوسهم على الأرض من أن واحداً منهم يُعيد البقية إلى الحق، ويكشف لهم زيغ عقولهم، وكذلك كونه فتى في مرحلة الشباب، وليس من كبارهم، فإن في ذلك البيان العظيم براعة في احتواء تلك الدلالات من خلال تغييب الفاعل، وعدم إظهاره وحصره في شيء واحدٍ، حتى تتعدد الدلالات، فتستوفي جميع المقاصد من غير إعادة لها بالتفنيد والتعداد.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٠/١١)

ثم وجهوا سؤال احتجاج، يريدون به إفحام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والانتصار لأنفسهم ولِمَا يعبدون من دون الله تعالى ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ لقد تحقق لك العلم يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق، فكيف تطلب منَّا سؤالها عن الذي جعلها جذاذاً، وأنت تعلم حقيقتها التي لا تخفى عليك. فاحتجوا على إبراهيم الخليل بما هو حجة له عليهم. فيكشف السؤال منهم على انقلابهم وتحولهم من الاعتراف بالحق إلى نكرانه، مع التهديد المفضي إلى أن توجيهك لنا بسؤالها هو تحقير لنا، وسخرية بعقولنا.

فيقلب عليهم رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام احتجاجهم عليهم ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ فوجه إليهم سؤال تعجب واستنكار لعبادتهم من لا نفع منه، ولا ضر له. كيف تعبدون من دون الله تعالى من تحقق فيه كمال القصو؟، فانتفت منه القدرة على نفعكم ولو بشيء، وانتفت منه كذلك القدرة على الإضرار بكم ولو بشيء يسير. فهو سؤال رُشد، مُرشد إلى الحق، وكاشف لهم بالعقل والمنطق الصحيح السليم بطلان عبادتهم لمن لا ينطق ولا يدفع شراً عن نفسه، ولا عن غيره، ولا يجلب خيراً لنفسه ولا لغيره. بدليل أنها لم تدفع عن نفسها ما أصابها، وبالتالي انتفت منها القدرة بالكلية، وثبت عجزها، وثبت جهل من تقرب إليها؛ ورجاها في جلب خير أو دفع مكروه.

ثم أظهر لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام قوة تضجره وأسفه من عدم تقبلهم للحق الذي تأكد لهم عقلا وحقيقة ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ تباً وقبحاً لكم ولما تعبدون من تماثيل تصنعونها بأيديكم، ثم تتذللون لها، تاركين عبادة الله تعالى، ومتجاوزين لها. ثم يوجه لهم سؤال استنكار ولوم على عبادتهم تلك الأصنام من دون الله تعالى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أليس لكم عقل أدركتم به الحق من الباطل، وأن المستحق للعبودية هو الله سبحانه وتعالى، وبطلان ما تعبدون من التماثيل التي تصنعونها بأيديكم. فلما لزمتهم الحجة، وقامت عليهم البينة الواضحة، وحصل منهم تسفيه أنفسهم بما حكاه الله تعالى عنهم، بقولهم ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ثم عدلوا إلى انتكاستهم بما كانوا عليه. فيقول لهم إبراهيم بما قاله الله تعالى عنه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أليس لكم عقل أدركتم به الحق من الباطل، والمستحق للعبودية ممن لا يستحقها، أفلا تتدبرون ما أنتم عليه من الضلال والكفر، الذي لا يلتبس إلا على فاجر منغمس في الجهل والكفر والعناد.

ومن جميل البيان أنه خاطبهم بقوة الناصح الذي قابله قومه بقبول الحق ومعرفته ثم نكرانهم تعمداً وتكبراً، فبدأ كلامه عليه الصلاة والسلام باسم الفعل ﴿ أُفٍّ ﴾ وهو صوت يفيد قوة التضجر أمام الذي

يرى الصواب ويختار غيره، ويرى الحق ويختار الباطل، ثم أسند علة هذا التضجر إلى تصرفهم ﴿ أُفِّ لَّكُمْ ﴾ فأفاد التقبيح لهم بسبب مسلكهم المعادي للحق الواضح الذي انكشف لهم وأدركوه إدراكاً ينتفي معه الجهل أو الريبة والشك، حتى أنهم اعترفوا به.

ثم جمع معهم أصنامهم في خانة التضجر ﴿ أُفِّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ليعطي انطباعاً بأن هذا التضجر هو لشخوصهم المتعلقة بتلك المعبودات، ويعطي إفهاماً ودرساً للجموع التي حضرت ذلك الموقف المهيب. ثم يختم كلامه عليه الصلاة والسلام بالامتعاض من انتكاس تفكيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أين عقولكم من هذه الحقائق التي تنسف عبادتك لغير الله تعالى، وتنسف ألوهية تلك التماثيل. فإنها أساليب وحجج لا تكون إلا من مُؤيَّد من ربه تبارك وتعالى، ومؤكدة كمال رشد إبراهيم عليه الصلاة السلام، وموضحة لحقيقة اصطفائه، وكاشفة ومُعرية لخطأ ما كانوا يعبدون من دون الله سبحانه وتعالى.

وبعد هذا الاحتجاج القائم على الحقيقة والبرهان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يتجهون للقوة القصرية التي تمتلكها الجماعة تجاه الفرد ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ فعندما أعيتهم الحجة، وأخذتهم العزة بالإثم، قالوا لبعضهم البعض﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ استخدموا النار لإحراقه وإهلاكه، والتي هي أشد العقوبات، من أجل نُصرة آلهتهم ﴿ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ فالهدف والغاية من هذا الإحراق لإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الانتصار للآلهة. بما يدل على أن علة الإحراق هو انتصار للهزيمة التي لحقت بهم وبآلهتهم، وأثبت فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطلان ما يعبدون من دون الله تعالى، فتنادوا بينهم إلى نُصرة معبوداتهم من الأوثان ﴿ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ إن كنتم اعتمدتم وقررتم نصر الآلهة فأحرقوا إبراهيم. وهو من باب التحريض والتشجيع على تبني هذا القرار، حتى أن التحريق ورد بصيغة المبالغة ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ التي تفيد: امتداد الدلالة إلى أقصى غايته. أي حَرِّقُوه حتى ينشوي، ويتهالك، فلا يبقى له أثر. فأوضحت الكلمة عمق حقدهم، ومبالغتهم في نوع الانتصار لآلهتهم ولأنفسهم.

ويُظهر الله تعالى قوته، ونُصرَتُه لرسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فبهذا الانتقال الكريم من الله تعالى إلى إبطال خصائص النار ما يدل على أنهم توافقوا على إحراق إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنار، وجمعوا الحطب، وما يُوقدون به على النار، وتجمهر الناس حول هذا الحدث العظيم، وأضرموا النار، واضعين إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وسط نارهم. معتقدين

أن قوتهم غالبة ومنتصرة لآلهتهم. ولكن قوة الله تعالى أعظم وأعز، فهو الذي خلق النار، وخلق فيها خاصية الإحراق. ومن وضع فيها خصائص الإحراق قادر على أن يسلب منها ما خصها به، فقال تبارك وتعالى ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فتحولت خاصية الإحراق إلى خاصية السلامة والأمن، بل تحولت إلى الضد، فمن الحرارة إلى البرودة، ومن الإحراق إلى السلامة، فكلمة ﴿بَرْدًا﴾ تقابل الحرارة الملتهبة الحارقة للنار، وكلمة ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ تقابل فعل الإحراق والتآكل لما يوضع في النار. ليدل على قوة قدرة الله تعالى، وعلى دقة وبراعة الإعجاز اللفظي والدلالي في القرآن الكريم، الذي بلغ فيه الإعجاز غايته من كل وجه، فسبحان الله العظيم.

فلم يشعر إبراهيم عليه السلام بأي مكروه، ولم يصبه أدنى أذى، فجعل سبحانه وتعالى الخسارة والندامة عليهم، مما يدل على أن الله تعالى هو الناصر، وهو القادر، وأن خصائص الأشياء من المخلوقات هو بفعل الله تعالى، وتدبيره، ولو شاء لما جعل تلك الخصائص، وإذا شاء عطلها وأوقفها، وإن شاء خففها، فإن الْمُلْكَ لله وحده لا شريك له ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ فأرادوا بإبراهيم الخليل حيلة دبروها فيما بينهم، فأخفوا مرادهم بينهم، دون علم إبراهيم بمرادهم، لأن الكيد فيه تخفي بالمكيدة عن الْمُكَاد له. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ فجعلهم ربنا تبارك وتعالى ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ بما يفيد تعميم الخسارة، لتستوعب الدنيا والآخرة، بل وأمعن في خسارتهم إلى درجة المفاضلة التي تبين أنهم أخسر الناس التي لا تماثلها خسارة، بما يعود عليهم بالحرقة والألم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح. أكلت لحومهم، وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه[1] فخابوا وخسروا، فقد حصل لهم ضد مرادهم في شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وحصل لهم في أنفسهم من العذاب ما خابوا وخسروا به، لتكون آية عظيمة، ورفعة عزيزة لرسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ربه تبارك وتعالى.

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٠١)

ثم يذكر الله تعالى مزيد فضله على خليله ورسوله إبراهيم بالنجاة من النار، والنجاة من قومه، وإخراجه من بين أظهرهم من العراق بلاد قومه إلى بلاد الشام الذي بارك الله تعالى فيها ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ قال قتادة: وكان بأرض العراق، فأنجاه الله تعالى إلى الشام[١] وكان معهلوطاً، وهو ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن تارخ. وكان قد آمن به، فهاجر من أرض العراق إلى الشام[٢] وهذا امتنان من الله تعالى عظيم على نبيين كريمين صلوات الله وسلامه عليهم، وهو ما يدل على أنه لم يؤمن معه إلا لوط عليهما الصلاة والسلام. قال السعدي رحمه الله تعالى وغيره: أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام[٣]

ووصف الله سبحانه وتعالى البلاد التي أنجاهما إليها بالمباركة ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: نجيا من العراق إلى الشام. وبركاته الواصلة إلى العالمين: أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بُعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم، وآثارهم الدينية، وهي البركات الحقيقية. وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغني والفقير[٤] وبالتالي استوفي قوله تعالى ﴿ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ طيب العيش للغني والفقير من الساكنين بها، وكذلك ما يخرج من خيراتها الواصلة للعالمين. وما ذكره الزمخشري آنفاً رحمه الله تعالى، أي: وبركاته الواصلة للعالمين، بانتشار شرائع الأنبياء الذين بُعثوا فيها. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، إن كان قد قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط[٥] ومن ذلك يتبين بركة بلاد الشام العامرة بالخيرات، وأن لله تعالى أن يصطفي ما يشاء من العباد والبلاد، سبحانه وتعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى بالمزيد مما امتن به على عبده وخليله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴾ فقد وهب الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام ابناً اسمه إسحاق، وأنجب إسحاق ابناً اسمه يعقوب عليهما السلام. قال لقرطبي رحمه الله تعالى عن

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٤/٥)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٨٩/٣)

(٤) الزمخشري، الكشاف (١٢٤/٣-١٢٥)

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٥/١٦)

دلالة ﴿نَافِلَةً﴾: أي: زيادة، لأنه دعا في إسحاق وزيد في يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة، أي زيادة على ما سأل[١] وهذا دليل على كرم الله تعالى، إذ يُعطِي السائل أكثر مما سأل. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وهبة إسحاق له ازدياده له على الكبر، وبعد أن يئست زوجه سارة من الولادة، وهبة يعقوب ازدياده لإسحاق بن إبراهيم في حياة إبراهيم، ورؤيته إياه كهلاً صالحاً. والنافلة: الزيادة غير الموعودة، فإن إبراهيم سأل ربه كما في سورة الصافات: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴿١٠٠﴾﴾ أراد الولد، فَولد له إسماعيل، كما في سورة الصافات، ثم ولد له إسحاق، عن غير مسألة، كما في سورة هود. فكان نافلة، وولد لإسحاق يعقوب، فكان ايضاً نافلة[٢] وقال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكلا ولديه: إسحاق ويعقوب كان فضلاً من الله تفضل به لإبراهيم، وهبة منه له. وجائز أن يكون عَنِي به أنه آتاهما إياه جميعاً نافلة منه له. وأن يكون عني أنه آتاه نافلة يعقوب. ولا برهان يدل على أي ذلك المراد من الكلام، فلا شيء أولى أن يقال في ذلك مما قال الله: ووهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب نافلة[٣] فالنافلة زيادة عطاء على الأصل. ومن ذلك صلاة النافلة، الزائدة عن الفرض.

ومن كرم الله تعالى أن بارك له في ذريته. فقال عَزَّ وجل ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: وكل واحد من المذكورين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب صالحين، وكل واحد منهم جعلناه صالحاً، بتوفيقهم لطاعة ربهم تبارك وتعالى، وإعطائهم النبوة. وهو شرف كبير، ونافلة وهبة عظيمة من الله تعالى لإبراهيم وذريته، فالجميع أهل خير وصلاح. مما يدل على أن المقصود بالصالحين هنا هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام.

ومن مزيد كرمه سبحانه وتعالى على إبراهيم وذريته عليهم الصلاة والسلام أن جعلهم أئمة في الهداية والدلالة على الخير. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ فجعل الله سبحانه وتعالى هؤلاء المذكورين السابقين ﴿أَئِمَّةً﴾ قدوة يُقْتَدَي بهم في الخير لمن أراد الخير والصلاح والفلاح والنجاة والنجاح، وكونهم أئمة دليل على صلاحهم في أنفسهم ولغيرهم، بأن جعل الله تعالى لهم ذلك سجية ومنهجاً، بتوفيقه وهدايته لهم، ومنته عليهم. وجعلهم أئمة هدى ﴿يَهْدُونَ﴾ يدلون غيرهم على الحق، وفق أمر الله تعالى وهديه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٢/١١)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩٧/٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٧/١٦)

﴿ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ فمسلكهم في أنفسهم ومع غيرهم هو وفق ما يأمرهم به الله تعالى بالوحي الذي يُوحيه إليهم. مما يفيد أن ضابط صحة الهداية أن تكون وفق ما أمر الله تعالى به. وفي هذا التنصيص ﴿ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ ضبط للمنهج، وبيان لمسلكهم في أنفسهم ومع غيرهم، وتوجيه لكل مؤمن ولكل داعية للخير أن يكون فعله وهديه وهدايته ونصحه وفق شريعة الله تعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى ما أوحى به إليهم، وما أمرهم به ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ فأوحى إليهم أن يفعلوا عموم الطاعات مما شرعه الله تعالى لهم. فالخيرات جمع خير، وبالتالي شملت ﴿ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ جميع الطاعات التي أمر الله تعالى أن يطيعوه بها. وقد تضمن الوحي بالخيرات: العمل بها، وذلك بدلالة الفعل ﴿ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ أي: التطبيق العملي لعلم الخيرات. فيكون الأمر متضمناً لثلاث أسس وركائز، وهي: العلم والعمل بها، وهداية الناس إليها، مما يبين ويوضح ركائز الصلاح بأنها في: العلم، والعمل بالعلم، ودعوة الناس بالعلم.

وكذلك أوحى إليهم سبحانه وتعالى ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ فعطف سبحانه وتعالى الصلاة على الخيرات، بإفرادها بالذكر، بالرغم من أن الصلاة داخلة في الخيرات، ولكن من باب عطف الخاص على العام، لإظهاره وإبرازه، أي لإظهار الصلاة من بين الخيرات، وإعلان أهميتها. ثم عطف من بعدها الزكاة ﴿ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ فيؤتوا الزكاة كما شرع ربنا تبارك وتعالى، مع هداية الناس لإيتائها. وفي إفراد الزكاة دليل أيضاً على أهميتها من بين جميع الخيرات. كما جعل رتبتها بعد الصلاة مباشرة، ليدل على منزلتها ومكانتها. ووصف سبحانه وتعالى أداءهم للصلاة بلفظ الإقامة ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ التي تعني كمال الأداء، والثبات والمداومة والإظهار لها. فليس فيها انقطاع، ولا عنها انشغال. كما يشمل الأداء لها أن يكون بأكمل وجه. وكذلك وصف سبحانه وتعالى أداءهم للزكاة بالإيتاء ﴿ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ وهو صرفها في مصارفها، بإعطائها مستحقيها على أكمل وجه ووفاء ،وكمال وتمام. والمتأمل يجد أن الصلاة عبادة بين العبد وربه سبحانه وتعالى، والزكاة عبادة لله تعالى ولكن تطبيقها وتفعيلها كائن بين العباد. مما يبين عناية الإسلام بالتآلف والتعاضد، والتراحم، وتفقد أحوال المحتاجين، ومبادرتهم بالعطاء.

ثم أجمل تبارك وتعالى طاعتهم له عَزَّ وجل في أدق وصف وشمول. متضمناً لكمال الأداء، وذلك بالقيام بمقتضاها خير قيام، فقال تعالى مزكياً ومادحاً لهم ﴿ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ أي: كانوا مخلصين في عبادتهم

لربهم تبارك وتعالى، بما ينفي عنها وعنهم شوائب الرياء والشرك. مما يعلم الناس أن العبادة لا تكون إلا لله تعالى، خالصة له وحده لا شريك له، وأن العبادة المقبولة هي المتصفة بالإخلاص له جَلَّ في علاه. وفي هذا مدح وثناء وتزكية لهم من ربنا تبارك وتعالى. فقد أفادت ﴿وَكَانُواْ﴾ ماضيهم وحاضرهم مع استمرارهم حتى توفاهم الله تعالى. كما أفادت ﴿لَنَا﴾ الإخلاص والتخصيص، بأن العبادة كانت منهم لله تعالى وحده لا شريك له، وقد زكاهم الله تعالى بها، فهو القائل عنهم ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ فنفت الشوائب جميعاً من دون استثناء، وأثبتت كمال الإخلاص التام لله تعالى. وأفادت ﴿عَٰبِدِينَ﴾ اتصافهم بكثرة العبادة لله تعالى، حتى أصبحت العبادة صفة لهم، بأنهم عُبَّاد لربهم عَزَّ وجل ﴿عَٰبِدِينَ﴾ كما أفادت المداومة المستمرة، والانشغال بطاعة وعبادة الله تعالى. فكان بياناً دقيقاً لعبادتهم.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ
قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ٧٧﴾

ينتقل البيان الكريم إلى قصة لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه، وهو لوط بن هاران بن آزر. وهو ابن أخو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان قد آمن بإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وهاجر معه. فابتدأ سبحانه وتعالى بذكر امتنانه عليه ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ يُثني اللهُ تبارك وتعالى على نبيه ورسوله لوطاً عليه الصلاة والسلام بما حباه ربه من النبوة والحكمة التي يهتدي بها، ويهدي بها غيره، وما علمه من علم الدين بشريعته، وإنجائه من القرية التي اشتهر أهلها بفعل الفاحشة.

وقد بدأ البيان الكريم باسم لوط عليه السلام المعطوف على نبأ إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، فقال الله تعالى ﴿وَلُوطًا﴾ وقد أخر عَزَّ وجل الفعل عن الاسم ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ إظهاراً وإبرازاً له عليه السلام، وتقديراً ورفعة لمقامه، بمعنى واذكر أيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم شأن لوط، الذي ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي: أعطيناه ﴿حُكْمًا﴾ أي: فصل القضاء بين الخصوم ﴿وَعِلْمًا﴾ وهو العلم بمعرفة الدين، الذي يتعبد

به ربه سبحانه وتعالى، ويدعو إليه. وقد تضمن العطاء الأول، الذي هو: ﴿ حُكۡمٗا ﴾ فصل القضاء بين الخصوم، كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى[١] والذي يشمل أيضاً دلالة النبوة، كما قال الشوكاني[٢] وقبله القرطبي رحمهما الله تعالى: الحكم بمعنى: النبوة[٣] وفي هذا دلالة على الإعجاز البلاغي في سياق القرآن الكريم، وتراكيب ألفاظه ومعانيها المتضمنة للأوجه المرادة والمقصودة بأكمل ما يكون، وبأقصر السياق، وأقل الكلام المتعاظم والمتعالي في فوائده ودلالاته. وهذا العطاء نعمة من الله تعالى على لوط عليه الصلاة والسلام.

وتضمن العطاء الثاني: العلم ﴿ وَعِلۡمٗا ﴾ فزاده الله سبحانه وتعالى على الحكمة العلم ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ وهو العلم بمعرفة الدين، الذي يتعبد به ربه سبحانه وتعالى، ويدعو إليه. وما يجب عليه فيه، وما ينتهي عنه ويجتنبه، وورد العلم عاماً، ليستوعب ويشمل جميع ما يكتمل به معرفة وفهم شؤونه وتدبيره، كما يدل على كثرته وتنوعه، فيما يلزم علمه به وفهمه. مما يدل على عظيم ما امتن الله تعالى به على نبيه ورسوله لوط عليه الصلاة والسلام. ويفيد هذا في الجانب القيادي والإداري، أهمية ووجوب تزويد من يُكلف بأمر وشأن بما يحتاجه من المهارات والبيانات والمعرفة، وألا يُكلف الْمُكَلَف بأمر قيادي إلا وقد استوعب ما يجب أن يقوم بها.

وقد بين الله سبحانه وتعالى الذي آتاه لوط عليه السلام في كلمتين جامعتين لخصال الكمال المعرفي ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ ثم أضاف إليهما سبحانه وتعالى نجاته من قريته التي اشتهرت بفعل الفاحشة ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ وفي هذا بيان من الله تعالى لمدى قوة عنايته برسوله لوط عليه السلام، وعظيم ما امتن به عليه عَزَّ وجل. وقد دل فعل الإنجاء ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ ﴾ على أنه تعرض للأذى والمقت من قومه له، فقد هددوه بإخراجه من القرية، فأنجاه الله تبارك وتعالى منهم ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ فأنجاه الله تعالى من القرية التي اتصفت بفعل الخبائث، بأن يخرج منها لوط ليلاً، هو ومن معه من المؤمنين، فدمر الله تعالى تلك القرية وأهلها. وهي قرية سدوم التي أرسل الله تعالى لوطاً لأهلها. ولم ينسب الله تعالى نبيه لوط للقرية ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾ بل أفرده، لأنه مُتَوعَّد من أهلها. وأن من معه يكونون تبعاً له. وهذا من دقائق البيان.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٨/١٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤١٦/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٢/١١)

ووصف سبحانه وتعالى هذه القرية بأنها ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ والخبائث جمع لمفردة خبيث، مما يدل على كثرة وتنوع هذا الخبث، ومنه الشرك بالله تعالى، وفعل فاحشة اللواط، الذي اختصوا به، وأنهم أول من عمل هذا العمل من بني آدم، ومن خبثهم قطع الطريق. بل زاد سبحانه وتعالى من مقتهم، والمبالغة في شدة خبثهم بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ فإنهم قوم مستمرون على فعل الخبائث، حتى أصبح وصف السوء، صفة لهم ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ والسوء: هو ما قَبُحَ من الأفعال والأقوال. وأكد سبحانه وتعالى صورة خبثهم وفحشهم بصفة الفسق ﴿فَٰسِقِينَ﴾ التي تفيد مجانبة المعروف من الحق، والخروج عنه، فتركوه عمداً إلى غيره من الباطل. قال الراغب الأصفهاني: وإذا قيل للكافر الأصلي: فاسق. فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل، واقتضته الفطرة[١] بما يدل على أنهم خارجوا عن طاعة الله تعالى، وتمردوا على رسولهم لوط عليه السلام، فكذبوه وتوعدوه بإخراجه من القرية، بل وأمعنوا في الخروج عن الفطرة السوية، وعما يُلزمهم به العقل.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى عن تمام وكمال إنعامه وفضله على نبيه ورسوله لوط عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فقد أدخل الله عَزَّ وجل رسوله لوط في رحمته المتضمنة لواسع العطاء من منحه النبوة والحكمة والعلم، وإنجائه من عداوة قومه، ومما أصابهم من العذاب، وفي الآخرة من أصحاب وأهل الجنة. ثم علل تبارك وتعالى سبب إدخاله لوط عليه السلام في رحمته ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بأنه كان من الصالحين ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فصلاحه كان سبباً في إدخاله في رحمته تبارك وتعالى، وذلك أنه كان يعمل بطاعة الله عَزَّ وجل، وينتهي عما نهى عنه جَلَّ جلاله. مما يفيد أن مِنْ عِلَلِ التوفيق هو التزام العبد بمسلك الصلاح، وذلك بطاعة الله تبارك وتعالى، والانتهاء عما نهى عنه عَزَّ وجل. ومن روائع البيان أن دلالة كلمة الرحمة ﴿رَحۡمَتِنَآ﴾ أنها تستوفي في هذا السياق الأقوال التي ذكرها أهل التفسير، وهي: النبوة، وقيل: في الإسلام، وقيل الجنة، وقيل عني بالرحمة إنجاءه من قومه[٢] وهذا من غزارة البيان في القرآن الكريم، وعظمة الكمال في كتاب الله تعالى.

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٨٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٠٢-٢٠٣)

ثم انتقل البيان العظيم إلى جانب من قصة نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ واذكر أيها النبي حال نوح عليه الصلاة والسلام من قبل بعثة إبراهيم ولوط. حين نادانا وهو يستجير بنا من أذى قومه وعنادهم طيلة ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومن بعده الطوفان العظيم. وهذا النداء المشار إليه هو ما ذكره عَزَّ وجل في سورة القمر ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ وكذلك ما ورد في سورة نوح ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ فاستجاب الله تعالى نداءه واستغاثته عليه الصلاة والسلام ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ فأمره الله تبارك وتعالى بصناعة السفينة، ونجاه ومن معه من المؤمنين، وأهلك الكافرين بالغرق. ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فقد نجى الله تعالى رسوله نوحاً وأهله، وهم جميع من معه من المؤمنين ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وهو العذاب بالطوفان العظيم، الذي أغرق الله تعالى به الكافرين. وهو ما أشار إليه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى[1] وسُمّيّ بالكرب العظيم لأن أمواجه كانت كالجبال، وكذلك يشمل شدة التكذيب والأذى، لأن نوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وطاعة ربهم عَزَّ وجل، وهم يكذبونه، ويتواصون بالإعراض عنه، وهو ما أشار إليه ابن كثير رحمه الله تعالى[2] ومع كل هذه المدة وهذا الأذى فإنه لم يؤمن معه إلا قليل.

ومن شدة ما أصابه أن سماه الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْكَرْبِ ﴾ وهو شدة الغم، والْحُزن النفسي الشديد. وفي هذا الوصف بالكرب، مع تضخيمه بصفة العظمة ﴿ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ما يكشف شدته وهوله، بأن وصل هذا الكرب إلى أقصى غايته في شدته وهيئته وصورته، وأثره في النفس والحال من الغم العظيم الذي بلغ منتهاه. كما يبين صبر نوح عليه الصلاة والسلام على تلك المدة الطويلة في دعوته لقومه دون ملل أو كلل. ويفيد كلا الأمرين والوجهين من الدلالة بيان طاعة نوح عليه السلام لربه عَزَّ وجل، وتجلده في شأنه وأمره، وكذلك عون الله تعالى له، ومنعه وحمايته من أعدائه، كما يبين شدة عذاب الله تعالى لمن استهان بدينه والمرسلين، وما جاؤوا به من الحق. فليحذر الإنسان مما أصاب تلك الأقوام من العذاب، فإن الله تعالى على كل شيء قدير. فهي موعظة عظيمة لكل أحد من الخلق.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٩/١٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤/٣)

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى عظيم الامتنان بالنصر المؤزر لرسوله نوح عليه الصلاة والسلام. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فتحقق نصرنا لنوح بفضلنا وقدرتنا على القوم الذين لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. ومنعنا نوحاً من أذى قومه الذين كذبوا بما جاءهم به من الحجج والبراهين. ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وفي وصف النصر له بحرف ﴿ مِنَ ﴾ وليس بحرف **(على)** ما يدل على أن نصره كان بمنعهم عنه، والحيلولة دون الوصول إليه بسوء، فأخرجه عَزَّ وجل من كيدهم بحمايته منهم، ومنع كيدهم عنه، فلم يحصل له منهم ضرر طيلة حياته بينهم، والتي هي: ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وقد وصفهم الله تعالى بالمكذبين بآيته عَزَّ وجل، بما يبين أن حالهم مع آيات الله تعالى ومع رسوله نوح عليه الصلاة والسلام كان متصفاً بالجحود والتكذيب بآيات ربهم وخالقهم ورازقهم عَزَّ وجل، فأوغلوا في العناد، والكفر بالآيات والحجج.

فقد كانوا منكرين وجاحدين لحجج الله عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ فلم يستسلموا للأدلة والبراهين التي أيد الله تعالى بها نوح في رسالته لهم. بل عاندوا وكفروا بها، فانتقم الله تعالى له ممن كذب به. وعلل عَزَّ وجل هلاكهم بما يليق بهم من الوصف القبيح، الذي يستوجب ما نالهم من العذاب الشديد ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ أي تجذر فيهم القبح من العناد وتكذيب الحق والرسول، ولإعراض عنه، حتى تلبسوا بصفة السوء، فكان وصفاً مستحقاً لهم. فكانوا قوم سوء ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فبسبب إصرارهم على العناد والتمرد والكفر بآيات الله تعالى أغرقهم سبحانه وتعالى، فلم ينج منهم أحد، إلا نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين. فأكدت وبينت دلالة ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد الغرق للكافرين أجمعين، فلم ينج منهم أحد. مما يفيد أن الله تعالى قوي شديد العذاب، ولا يرضى من عباده الكفر، وأنه بالمؤمنين رؤف رحيم، إذ ينجيهم من السوء، والهلاك. وفي هذا تحذير وموعظة وإرشاد، وبلاغ لكل أحد من خلقه، بأن عليهم أن يتعظوا بما حصل لمن قبلهم من الأمم الكافرة، وأن النجاة متحققة للمؤمنين من بينهم. مما يدل على فضل الايمان، ومرتبته، وعلو مقامه عند الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ
شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن
نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ويذكر الله تعالى المزيد من بعض قصص الأنبياء والمرسلين، الذين منهم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ أي: واذكر كذلك إنعامنا على داود وسليمان، الذي هو ابن داود. وينتهي نسبهما إلى يعقوب عليهم جميعاً الصلاة والسلام. وقد جمع الله تعالى لهم بين النبوة والملك ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ ﴾ فاذكر أيها الرسول شأن داود وابنه سليمان ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ حين كانا يحكمان في قضية خصمين عُرِضت عليهما، وهي متعلقة برعي الغنم في الزرع ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ ﴾ وهو الزرع، أو النبت، فهما يحكمان في قضية متعلقة بهذا الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ حين رعت غنم القوم الآخرين ليلاً من غير راع يرعاها، فيردها ويمنعها، فرعته وأفسدته. لأن دلالة النفش ﴿ نَفَشَتْ ﴾ لا يكون إلا ليلاً. فعن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرماً، قد تدلت عناقيده، وكذا قال شريح.

وقال ابن عباس، النفش الرعي، وقال شريح والزهري وقتادة: النفش لا يكون إلا بالليل، زاد قتادة: والهمل بالنهار(١) والسرح بالغداة ما بين الفجر وطلوع الشمس، والسَّارب بالنهار، أي: ظاهر بالنهار في ضوئه.

ثم يبين تبارك وتعالى تمام وكمال علمه بما حكم به داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام في شأن أصحاب الغنم، وأصحاب الزرع ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ وكنا لما حكم به داود، ولما حكم به سليمان عالمين ومُطَّلِعِين، فلم يغب عن علمنا شيء مما حكم به كل واحد في شأن المتخاصمين.

وورد الجمع في السياق؛ ولم ترد التثنية في الحكم، على اعتبار أن اللذين حكما هما داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ فورود الجمع في السياق لحكمها حتى يكون شاملاً للحاكمين داود وابنه سليمان، وكذلك المحكوم بحقهما، صاحب الزرع، وصاحب الغنم. فإننا شاهدين على الجميع شهادة علم وإحاطة، فلم يفت منه شيء عن علمنا، مما يثبت إحاطة علم الله تعالى بكل ما يجري في الكون، فلا يستصعب ولا يستعظم العبد علم الله تعالى، فهو يسمع الأصوات كلها، ويرى الأشياء كلها، فلا يمنع سماعه شيء عن شيء آخر، ولا رؤية شيء عن رؤية البقية من الخلق، فلا يشغله شيء عن شيء سبحانه وتعالى، فإحاطته سبحانه وتعالى كاملة شاملة للكون، ومنهم العباد، فلا يتعذر عليه شيء عَزَّ وجل، فليس كمثله شيء جَلَّ في علاه.

كما وردت شهادة الله تعالى بصيغة الجمع ﴿شَـٰهِدِينَ ﴾ لإفادة التعظيم والتفخيم، والقدرة والهيمنة من ربنا تبارك وتعالى على كل شيء خلقه. مما يستوجب تعظيم الله تعالى، وتعظيم علمه وإحاطته بكل شيء، وفي استشعار العبد لذلك، ما يغرس فيه تعظيمه لربه جَلَّ في علاه، والخوف منه، بما يضبط سلوكه وأخلاقه وتعامله.

وخلاصة القصة كما ذكرها أهل التفسير: أنه احتكم إلى داود وسليمان عليهما السلام صاحب الزرع وصاحب الغنم، إذ أكلت الغنمُ الزرعَ. فقضى داود بالغنم لصاحب الحرث، وحكم سليمان بغير هذا الحكم. فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله. قال داود: وما ذاك؟ قال: تدفع الحرث إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فينتفع بها، حتى إذا عاد الحرث كما كان دفعت الحرث إلى صاحبه، ودفعت الغنم لصاحبها. والمتأمل في حكم داود عليه السلام يجد أنه يمثل إحقاق الحق بتعويض المتضرر عما لحقه من ضرر، فيقع الغُرم على من فرط في مسك أغنامه عن إيذاء غيره، بتعديها على ممتلكاته. بينما حُكْمُ سليمان تجاوز وفاق العدل إلى تحقيق المنفعة، وإبقاء كل صاحب حق على حقه. فبهذا الحكم من سليمان عليه السلام يجد توفيق الله تعالى له فيما حكم به، وهو الابن، وداود الأب، مما يفيد أن الله تعالى قد يُجري الحق على لسان الأصغر، وأن هذا التوفيق لا يعطي الأصغر الحق في القدمة على الأكبر، وإنما هو منطوق التأمل، وأخذ الحق

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٥/٣)

باعتباره، لا باعتبار قائله. فليتأمل الإنسان منطوق الحق، ويأخذ به، ولا يعلق الحق ويقصره على الأكبر سناً، أو الأكثر علماً. وأن على الإنسان ألا يستكبر على مصدر الحق، ولا يستكثره على من كان أقل سناً أو علماً، ليغرس في المؤمن التواضع للحق.

وقد أخبر تبارك وتعالى بأنه هو الذي ألهم سليمان الحق، وأنطقه به، بالرغم من أن كلاً من داود وسليمان قد منحهما اللهُ سبحانه وتعالى الحكمة والعلم، فقال عَزَّ وجل مبيناً لذلك ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ ففهمنا سليمان الحكم الأنفع للطرفين في القضية، فقد ألهم الله تبارك وتعالى سليمان وجهاً من الحكم الذي تتحقق به المصلحة لكلا الطرفين، دون أن يغرم صاحب الغنم غنمه، ولا يضيع على صاحب الزرع ثمره، فيعود كل واحد منهما بما كان عنده من فضل ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ وفي تفهيم اللهُ تعالى لسليمان الحكم ما يُدخل البهجة على داود عليه الصلاة والسلام، لأن في ظهور الأفضل في الحكم على منطوق ابنه سليمان ما يجعله يشعر بقدرة ابنه على الحكم بأحسن ما يكون. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والله تعالى أراد أن يُظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به[1] كما أن في هذا سروراً لسليمان عليه الصلاة والسلام، بأن يشير لأبيه بما هو أفضل وأكمل وأحسن في الحكم، فأصاب وأوقع الله تعالى بها إيتاء الفضل للوالد وولده. وفي هذا ما يستثير عند المؤمن الركون والالتجاء إلى الله تعالى، ويسأله حُسن الفهم، وحُسن المنطق، وحُسن الرؤية، وحُسن التدبير.

فإن اتجاه داود عليه السلام كان من جانب تعويض صاحب الزرع، ورفع الضرر عن المتضرر، وأن يتحمل مسؤولية حماية الأغنام عن أذية الغير. بينما اتجه سليمان بما أفهمه الله تعالى به إلى تحقيق المنفعة، ومنع تحصيل الضرر. مما يفيد اختلاف الأفهام باختلاف المراد، فإن كل مراد ينتج عنه حكماً يتوافق مع تحقيقه، وأنه كلما ارتقى وارتفع المراد ارتفع معه الحكم والهدف والوسيلة. فترقية الفهم يحقق ترقية القرار والتصرف والاختيار.

كما يفيد قوله تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أن كمال الفهم، ومعونة سداد الرأي هو فضل من الله تعالى، فليطلبه المؤمن من ربه تبارك وتعالى. فليس ذلك اجتهاد من سليمان عليه السلام، بل نتيجة فضل الإفهام له من الله تبارك وتعالى ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ فذلك فضل الله تعالى، يؤتيه من يشاء.

ومنعاً للفهم القاصر، ومعالجة لما قد يكون من قصور الفهم واستدراكاً لمن قد يُقَدِّم الابن على الأب، والصغير على الكبير، لمنطوق أو لفعل أفضل وأحسن، أو يقدم طالب علم على عالم حين يبدر ويظهر منه تفوقاً، فقد ذكر تبارك وتعالى بياناً لذلك ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فكلاً من داود وسليمان آتيناه ما

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠٣/٧)

يكمل به صلاحه ومقامه ونبوته، فآتى كل واحد منهما: حكما ﴿ ءَاتَيْنَا حُكْمًا ﴾ أي: نبوة وإصابة في القول والعمل ﴿ وَعِلْمًا ﴾ أي: فقهاً ومعرفة بشريعة الله تعالى، وفهماً حكيما وسليماً للأمور، وبالتالي ليس حكم داود عليه السلام عن قصور، وليس حكم سليمان عن زيادة علم عن أبيه، بل لأننا خصصنا سليمان بذلك الفهم ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى، والتي ظهرت فوائدها فيما سبق من الإيضاح.

وجملة ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فيها مزيد مدح وثناء لداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام. وفيه تزكية لحكم داود، مع تفضيل حكم سليمان بما أفهمه الله تعالى به. وفيه أن تفضيل شخص في أمر لا يعني فضله وعلوه على من يساويه أو يعلوا عنه. فقد يفضل البليغ الصغير على الكبير الذي قصر به الأمر في ذلك الوجه، مع تعدد الفضل من الكبير في أوجه أخرى قد لا يبلغها الصغير. مما يفيد أن كل واحد يُستفاد منه فيما يبلغ فيه مبلغ الفضل، وأنه يلزم منه بأن لا يتعالى على غيره من أهل الفضل. فإنه درس بل دروس عميقة في هذا الجانب.

ثم ذكر سبحانه وتعالى بعضاً مما امتن به على نبيه داود عليه السلام ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ ومن كرم الله تعالى على عبده ونبيه داود عليه الصلاة والسلام أن جعل الجبال والطير ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ معه حين يسبح. قال أبو هريرة رضي الله عنه: كان إذا سبح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذكر[١] وقال قتادة رحمه الله تعالى: أي: يصلين مع داود إذا صلى[٢] فالتسبيح يشمل الذكر، ويشمل غيره من العبادات، وبالتالي قد يجتمع مع الصلوات الذكر أيضاً. ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ أي: قد قضينا في أم الكتاب بأننا فاعلون ذلك، من إيتاء الحكم والعلم وتسخير الجبال والطير مع داود عليه الصلاة والسلام. مما يبين أنه لا شيء يستحيل على الله تعالى، ولا شيء يُستنكر على ما يخصص الله تعالى بعض عباده به. فالكون كله مُلك لله تعالى.

ومن دقائق البيان استخدام الفعل ﴿ وَكُنَّا ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ ليتبين به أنه أمر مقضي في أم الكتاب، من قبل أن يُخلق داود عليه السلام، فإرادة الله تعالى وحكمه سابق. وفي مشاركة الجبال والطير لداود عليه السلام التسبيح ما يدل على كرامته ومنزلته عند الله تبارك وتعالى، وفي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٥٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٣١٩)

ذلك تعظيم لشأن نبيه داود عليه السلام. وفيه بيان بأن الكون كله لله تعالى، يسخره كيف يشاء، وأن صورة تسبيح المخلوقات لله تعالى لا يفقه الإنسان كيفيتها، فلا يُدرك هيئة تسبيح غيره من مخلوقات ربه جَلَّ في علاه.

ومن دقائق البيان العظيم أن جاء الفصل بين الجبال والطير بلفظة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ فلم يقل تبارك وتعالى: وسخرنا مع داود الجبال والطير يسبحن. بل قال تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ وفي هذا الفصل والإفراد لكل صنف ما يُبرز ويُظهر كل نوع من الجبال والطير على حده، وكذلك لاختلاف جنسيهما عن بعض. فيزداد الْمُخَاطَب به تأملاً وتفكراً، سواء في الجبال الراسيات؛ ذات الضخامة والثبات، أو في الطير الصغير في حجمه، وخفة وزنه، وكثرة حركته. فكل منهما يحمل صورة مفارقة ومتباينة عن الآخر. وفي هذا بلاغة في المقصد، وفي السياق البديع، وفي استثارة ذهن المتلقي للخطاب والبيان.

ثم يضيف تبارك وتعالى ما يتعلق بتعليم صناعة السلاح بقوة واقتدار، مع قوة في الدلالة وإبداع البيان. قال عَزَّ وجل ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ وعلمنا داود صناعة السلاح والدروع الواقية من بأس الحرب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: اللبوس عند العرب: السلاح كله، درعاً كان أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً[١] والجوشن هو: اسم للحديد الذي يُلبس من السلاح. مما يفيد أن العلم والابتكار والاختراع هو هداية وفضل من الله تعالى على الإنسان. والهدف هو ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: أن تعليمه صنعة السلاح حتى تتقوا بها بأس عدوكم، فيكون السلاح مصدر خوف للعدو منكم بما صنعتموه من أنواع السلاح، فيكون قوة ومَنَعَة لكم من بأس غيركم. قال لإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول[٢] فتشمل دلالة الآية الكريمة كذلك: أن تتقوا وتتحصنوا بهذه اللبوس من الدروع من بأس عدوكم. مما يبين نعمة علم صناعة السلاح، وأنه فضل من الله تعالى لاتقاء بأس العدو وشره.

ثم يستثير سبحانه وتعالى معالم هذه النعمة العظيمة التي يُتَحَصَّنُ بها مِن بأس العدو وشره وسطوته بصيغة السؤال التقريري، الذي مفاده الحض والأمر والتوجيه ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ فهو سؤال يقرر به سبحانه وتعالى العباد بما هم عنه غافلون، وهو وجوب الشكر الذي غفلوا عنه، ليعطي دلالة الحض على الشكر، والأمر به. فكيف تغفلون عن شكر نعم الله تعالى عليكم. وفيه تقرير نعمة عِلم صناعة السلاح، وأهميته،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٩/١٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٢/١١)

وأهمية العناية به. ووجوب أن تتقوى الدولة المسلمة بالسلاح الذي تصد به بأس أعدائها، وأن تقوم بتصنيعه والتدريب عليه كما صنعه داود عليه الصلاة والسلام.

ومن بديع البيان في دلالاته التي تستوعب العديد من الفوائد، أن النص الكريم لم يحدد صنعة بعينها من السلاح ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ لتستوعب جميع أنواعه، ومستجداته عبر العصور والأزمان، كما ذكر ابن جرير فيما سبق. وليكون فائدة ما تعلمه عليه السلام عابرة وممتدة إلى ما بعده من الأزمان والأجيال. غير أن النص حدد التعليم المخصوص بداود عليه السلام، ولكن كلمة ﴿لَّكُمْ﴾ يستوعب به الخطاب والامتنان المخاطَبُون به. فإن النص الكريم حدد وعين المستفيد ﴿لَّكُمْ﴾ بأنه أنتم المخاطبون، مع استيعابه لداود عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ فالْمُعَلَّم هو داود عليه الصلاة والسلام، والمستفيد من معه، ويلحق به عموم العباد من غيرهم.

ثم عين الهدف وحرره في أنه ليس للاعتداء، وإنما للوقاية ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ لتحرزكم وتمنعكم من شر اقتتالكم. والتحصين يكون أثناء القتال بالوقاية والتوقّي، وكذلك بقوة الإرهاب بما لديكم من صنعة السلاح. فتتقوا به نوايا وأطماع العدو. وجمعت دلالة بأس من قوله تعالى ﴿بَأْسِكُمْ﴾ جميع ما قد يحصل بين المسلمين وأعدائهم الكافرين كما في سورة الأنفال ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ وكذلك ليشمل بأس ما قد يحصل بين المسلمين بالبغي، كما في قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ فقتالها يحتاج السلاح بنوعيه المفضي إلى الرجوع إلى الحق، وكذلك الواقي من بأس الطائفة الباغية.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى ما أنعم الله تعالى به على نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ وكما سخرنا لأبيه تسبيح الجبال والطير، وعلمناه صنعة السلاح فإننا سخرنا لابنه سليمان الريح

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ ﴾ وهي العاصفة من الريح الشديدة ﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾ تسير جرياً بأمره إذا أمرها ﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ﴾ فتجري هذه الريح به إلى أرض الشام التي اتصفت ببركة الله تعالى لها. فهي تسير به إلى ما يشاء من الأمكنة، وتعود به إلى أرض الشام التي هي موطنه عليه السلام، ومقر مملكته وداره. فهي تجري به في ذهابه وتنقله وعودته إلى أرضه ومملكته. وقد اجتمع في هذه الريح: السرعة والشدة من القوة والبأس، وطاعتها لسليمان عليه السلام، وأنها طيبة ورخاء في نفسها عليه، وعلى ما يريد، فهي طوعة له في حملها له، وفيما يبعثها إليه أو تجري به.

ثم يخبر عَزَّ وجل بكمال تدبيره وعلمه ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ فكل شيء يجري في هذا الكون قد علمناه علماً مطلقاً كاملاً، فلا يخفى علينا منه شيء البتة. فكلمة ﴿ وَكُنَّا ﴾ تفيد استصحاب دلالة الزمن، من قَبْل ومن بعد، كما تفيد كلمة ﴿ بِكُلِّ ﴾ استيعاب ما لحق بها من الدلالة، وهي لفظة ﴿ شَيۡءٍ ﴾ فاستوفت جملة ﴿ بِكُلِّ شَيۡءٍ ﴾ الحصر لكل كائن، فيما كان وما هو كائن وما سيكون عليه من شيء قبل أن يكون، فلا يغيب شيء منه عن علم الله جَلَّ جلاله. فإن الله تعالى به عليم ﴿ عَٰلِمِينَ ﴾ فبكل شيء دبرناه خلقاً وتصريفاً عالمين به ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ وبالتالي فإن كل ما يسير في الكون هو بحكمته وإرادته وعلمه، فلا يخفى على الله تعالى شيء البتة. ومن عظيم البيان هو ورود علم الله تعالى بصيغة الجمع ﴿ عَٰلِمِينَ ﴾ الذي أفاد التعظيم والتفخيم لجلال علمه عَزَّ في علاه.

ومن فضل الله تعالى ومنته على سليمان عليه الصلاة والسلام أن سخر له الشياطين، فيعملون بما يأمرهم به، فقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ فإن مما امتن الله تعالى به على سليمان عليه الصلاة والسلام أن سخر له الجن، فإن منهم يغوصون في البحار، وينزلون إلى قاعها ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ فيأمرهم بالغوص، وهو التعمق في النزول حتى قاع البحر، واستخراج ما يشاء مما يأمرهم به، بل من بلاغة البيان وقوة التسخير أنهم يغوصون له، وليس لمصلحة أنفسهم، حيث حدد ذلك ربنا تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ أي: لمصلحته ورغبته وإرادته هو، وليس لأنفسهم. وكذلك يعملون أعمالاً لسليمان غير ذلك ﴿ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ مما يفيد أن التسخير يشمل أعمالاً غير أعمالهم له في البحر، بما يكلفهم به في اليابسة

وعموم الأرض، كإحضار ما يريد، وبناء وإنشاء الحصون والمباني والقلاع، وغيرها من الأعمال التي لا حصر لها؛ ولا حد لأنواعها وأحجامها. مما يبين قدرة الله تعالى في التمكين، وأن من يمكنه سبحانه وتعالى، وهو طائع لربه، فإنه يذلل له الصعوبات، ويسخر له العباد، وأن عظمة الله تعالى وإرادته لا تقاس بعمل وإرادة المخلوقات، فهو المالك ذو العرش العظيم، والسلطان الشديد المهيب، الذي كل شيء تحت قهره وسلطانه. كما يفيد هذا التسخير رفعة منزلة سليمان عليه السلام ومكانته عند الله تعالى، وعظيم مملكته؛ بما حباه الله تعالى من السلطة على بعض مخلوقات ربه تبارك وتعالى. وفي ذلك دروس للتأمل، ودروس في الإيمان، والطاعة لله تعالى، والانقياد، وعدم اليأس من أي حال يكون فيها العبد، فإن الْمُلْك لله تعالى وحده لا شريك له، فإنه عَزَّ وجل يَمُدَّ عبده بما يشاء، ويقيله مما يشاء، ويعينه بما يشاء. وأن الله تعالى هو المالك والناصر، والمعطي والمانع، والمتصرف في الكون بما يشاء، وأنه هو أرحم الراحمين.

ثم يبين عَزَّ وجل مزيداً من امتنانه على سليمان عليه السلام ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ أي: وقد تحقق من الله تعالى الحفظ لهؤلاء الشياطين من أن يمتنعوا عن أمر سليمان بعصيان، وعدم الامتثال لأمره، أو التخريب. بما يبين تحقيق كمال السلطة لسليمان على هؤلاء الشياطين، فلا يمتنعوا عما يريده منهم. ولا يزيغون عن أمره، فحفظهم الله تعالى له بقوته وقدرته وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى. مما يبين أن الله تعالى إذا أراد لعبد من عباده شيئاً، أخضع له بقدرته وسلطانه القوى، رهبة ورغبة، فلا شيء يتعذر عليه. فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، إذ هو القاهر فوق عباده. كما جاء في سورة الحشر من نُصرة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالرعب الذي ألقاه في قلوب أعدائه ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى كريم العطاء لداود وسليمان عليهما السلام، ذكر سبحانه وتعالى الابتلاء، الذي أصاب أيوب عليه الصلاة والسلام، ثم تلاه كبير الامتنان باستجابة دعائه ورجائه، إذ رفع الله تعالى عنه البلاء، وردَّ عليه ما فقده من المال والولد مضاعفاً ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ واذكر أيها الرسول سيرة عبدنا ونبينا أيوب حين ابتلاه ربه بالبلاء الشديد، فكان صابراً راضياً، فنادى ربه تبارك وتعالى ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ فتوجه إلى ربه مستغيثاً به على ما أصابه من الضر. وورد الطلب من أيوب عليه السلام بأنه كان نداء لربه تبارك وتعالى ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ والنداء يحمل الاستجداء والتضرع، الذي مفاده الاستغاثة والاستعطاف، مستجدياً ومستغيثاً ومستعطفاً لربه عَزَّ وجل بأن يقبل منه طلبه ويعطيه مسألته، برفع ما به من ضر. ليدل ذلك على قوة وشدة ما هو فيه من البأس

والكرب العظيم. فكان النداء من باب التعظيم والتبجيل لربه سبحانه وتعالى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فحصر تضرعه عليه الصلاة والسلام في وصف حاله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ بأن الضر قد ﴿مَسَّنِيَ ﴾ أي: أن الضر قد أصابني فباشر وخالط جسدي. والمس يفيد الملاصقة. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن أسلوب أيوب عليه السلام في الدعاء أنه: ألطف في السؤال، حيث ذكر نفسه بما يُوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب[1] وربط أيوب عليه الصلاة والسلام بين توسله بالإخبار عن عموم حاله وبين رحمة الله تعالى في كشف ما به من ضر، دون تفصيل لنوع ذلك الضر، لعلمه بأن الله تعالى عالم به، ومبيناً ومستغيثاً بما لله تعالى من صفة الرحمة، بل وصفها بأعمق وأعلى درجاتها ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فليس هناك أرحم منك يا أرحم الراحمين، بل حصر وقصر المبالغة للرحمة في الله تعالى. فليس هناك أرحم من الله تعالى، فهو ارحم الراحمين. فإن جملة ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ تحمل عظيم الوصف لله تعالى بما هو أهل وحقيقة له جَلَّ جلاله.

وملخص ما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى عن قصة أيوب عليه الصلاة والسلام: أنه قد أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث الشيء الكثير، وكذلك له من الأولاد والمنازل، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، ولم يبق منه سليم من جسده إلا قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عَزَّ وجل. ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته[2] وكان عليه الصلاة والسلام صابراً على ما أصابه من ضر، وقد كان ذلك الضر ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى واختباراً له. مما يفيد أن الله تعالى قد يبتلي العبد رفعة له، وليس انتقاماً وعقاباً، فليس كل ابتلاء هو عقوبة من الله تعالى، فإن لله تعالى الحكمة البالغة، فصبر أيوب على ما أصابه، مع التزامه بذكر ربه جَلَّ في علاه، مع حُسن عبادته. حتى ضُرِب به المثل في الصبر.

ثم يخبر الله تعالى عن استجابته لتضرع واستجداء أيوب عليه السلام ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ فاستجاب الله تعالى دعاء ورجاء أيوب عليه السلام، بأن رفع عنه البلاء، وردَّ عليه ما فقده من المال والولد مضاعفاً، رحمة من الله تعالى ومِنَّة. ليكون ذلك عبرة وقدوة لمن ينتفع بالعبر، فيصبر على البلاء، رجاء رحمة الله تعالى،

(١) الزمخشري، الكشاف (١٢٩/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٧/٣)

مع استقامة في الدين. وقد كانت الاستجابة من الله تعالى سريعة. فلم يقل تبارك وتعالى: فأجبنا وكشفنا ما به من ضر، بل أُضيفت السين والتاء على الإجابة ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾ لتعطي دلالة السرعة في الاستجابة بعد دعائه لربه تبارك وتعالى، ولحق بها بيان ما ناله من الخير ﴿ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ والكشف يفيد كامل الإزالة مما أصابه من ضر، بما يفيد عودته إلى كامل وكمال صحته وعافيته عليه السلام. ثم أضاف تبارك وتعالى استيفاء كمال نعمته عليه، بأن أعاد له أهله، وضاعف له في العطاء ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ ﴾ ذكر ابن مسعود وابن عباس وقتادة: أن الله تعالى أحياهم بأعيانهم، ورد إليه مثلهم. وفَصَّل آخرون بأن: آتاه المثل من نسل ماله الذي رده عليه، وأهله. فأما الأهل والمال فإنه ردهما عليه بأعيانها[١] وقال ابن مسعود: مات أولاده، وهم سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عُوفي نشروا له، وولدت امرأته سبعة بنين وسبع بنات[٢] وقيل: كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله، فيكون معنى الآية على هذا[٣] وجميعه على الله يسير.

ثم ذكر سبحانه وتعالى علة وسب هذا الإكرام من الله تعالى لأيوب عليه الصلاة والسلام ﴿ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا ﴾ فإنها رحمة خاصة من الله تعالى لصبره ورضاه. فتحقق له من الله تعالى جزيل الثواب. ثم ذكر عَزَّ وجل علة وسبب ما أصاب أيوب من البلاء ثم الخير والإحسان ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ أي: تذكرة وموعظة وعبرة للعابدين ربهم، ففعل ذلك بأيوب ليعتبروا به، ويعرفوا أن الله سبحانه وتعالى قد يبتلي أولياءه بضروب من البلاء، في أنفسهم وأهلهم وأموالهم، من غير عقاب على ذنب، وإنما لرفع درجاتهم، لأنه سماهم تبارك وتعالى ﴿ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ فإنهم عابدين لله تعالى، ومع ذلك قد يصيبهم من البلاء العظيم ما يظنه البعض عقوبة، وهو ليس كذلك. ولكن ليبلغ المنزلة التي أعدها الله تعالى لهم؛ إكراماً وتفضلاً بما يكون من العبد من الصبر والشكر على الابتلاء والاختبار. فحكمة الله تعالى أعظم من أن يتصورها العبد، وأنها عظيمة في ذاتها من كل وجه.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٣٦٦-٣٦٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢١٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣/٤٢٠)

ثم يذكر سبحانه وتعالى بإيجاز وإجمال بليغ قصة أنبيائه: إسماعيل وإدريس وذا الكفل ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ واذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم عبادنا إسماعيل وإدريس وذا الكفل بأحسن الذكر، لما كان منهم من الصبر والصلاح. فقد امتدحهم سبحانه وتعالى بالصبر، وفي الآية التي بعدها بالصلاح، فكل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متصفاً ومتحلياً بالصبر على طاعة ربه تبارك وتعالى، وعلى أقداره، وممتنعاً عن المعصية، وكذلك الصبر في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى. فاستحقوا الذكر بالثناء عليهم، مع تخصيص موطن الثناء، وهو الصبر، ليدل على منزلة الصبر ومكانته عند الله تعالى، سواء الصبر على طاعة الله تعالى، أو على الابتلاء حين حدوثه، أو الصبر عن المعاصي والشهوات.

ومن جمال البيان ودقائقه أن لفظة ﴿ كُلّٞ ﴾ من قوله تعالى ﴿ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أفادت التأكيد بالتنصيص والتخصيص لكل واحد منهم على انفراد، بل كل واحد منهم باسمه، بأنه كان صابراً، فقد تحلى بصفة الصبر، وليس تحقق الصبر فيهم بدخول مجموع بعضهم في بعض. كما أظهرت وأبرزت أن كل واحد منهم كان متميزاً في صبره. وأفادت ﴿ مِّنَ ﴾ التبعيض، أي: أنهم من فئة الصابرين، وأن فئة الصابرين كُثُر. وهؤلاء الثلاثة بعض منهم، فليس الصبر محصوراً فيهم فقط، بل يشمل غيرهم من العباد، ليتبين مقدور كل أحد من الناس بأن يتحلى بما تحلوا به من الصبر إن أراد العبد أن يكون من فئة الصابرين.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن مكانتهم ومنزلتهم عنده جَلَّ في علاه ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فبفضلنا وامتناننا عليهم أدخلناهم في رحمتنا التي وسعت كل شيء، وذلك بسبب ﴿ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فإنه بفضل من الله تبارك وتعالى أن هداهم، فجعلهم من الصالحين. ثم وصفهم عَزَّ وجل بما يعلل إدخالهم في رحمته؛ بأنهم متصفين بالصلاح ﴿ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فقد كانوا صالحين في أنفسهم بأحوالها المختلفة، وصالحين مع غيرهم، وصالحين في جميع ما هم مكلفون به، لأن الله تعالى وصفهم بعموم الصلاح، الذي يستوفي أنواعه، ومجالاته، ومواطنه، وجميع مفرداته.

كما بين قوله تعالى ﴿ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أنهم من فئة الصالحين، الذين يشملهم ما شمل غيرهم، وأن الصلاح لم يكن محصوراً فقط فيهم، وذلك بإدخال حرف ﴿ مِّنَ ﴾ الذي أفاد التبعيض، بأنهم بعض من الصالحين، أي: من فئة الصالحين. وفي هذا البيان غير الحصري ما يستثير غيرهم من المؤمنين ليتحلوا بصفة الصلاح، حتى يحضوا بمنزلة ومكانة من يحققه. مما يبين أهمية الصلاح ومنزلته، وما يتحقق به للمؤمن من الخير والمنزلة والكرامة في الدنيا والآخرة.

ثم تلى ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل نبي الله ذا النون عليه الصلاة والسلام ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ واذكر أيها النبي قصة عبدنا ورسولنا ذا النون ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ وهو يونس بن متى. والنون: اسم السمكة، أُضيف إليها لابتلاعها إياه[١] فاذكر حاله ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ أي: مغاضباً لقومه، إذ دعاهم إلى الله تعالى فأبوا. ذلك أن يونس بن متى بعثه الله تعالى إلى أهل نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه، وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم يجأرون ويبتهلون إلى الله تعالى، فرفع الله عنهم العذاب.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب وركب مع قوم في سفينة، فلجت واضطربت السفينة، فأرادوا التخفيف بإلقاء واحد منهم في البحر، فوقعت القرعة على يونس ثلاث مرات وهم يعيدونها. فتجرد يونس من ثيابه وألقى بنفسه في البحر، فأرسل الله تعالى حوتاً، فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة في البحر، فأوحى الله تعالى لذلك الحوت بأن لا يأكل يونس، بل جعل بطنه له وعاء وسجناً[٢] وكلمة ﴿مُغَٰضِبًا ﴾ تبين وتوضح مشاعره الداخلية، وهيئة ذهابه، وعلة خروجه، بأنه كان غاضباً، مما يدل على أن قومه غاضبوه فتغاضب معهم، لعدم امتثالهم أمر ربهم تبارك وتعالى، بل بينت دلالة صياغتها شدة غضبه، لأن ﴿مُغَٰضِبًا ﴾ تفيد المبالغة في الغضب، بأن غضبه وصل ذروته، ولم يصبر على قومه.

ثم بين تبارك وتعالى ما كان يظنه ويعتقده إن خرج عن قومه، وهي العلة والسبب الذي قاده للخروج عنهم، بمغادر ته لقومه من غير أمر من الله تعالى له بالمغادرة، لأن الرسول في تعامله مع قومه يكون بما يأمره ويوجه الله سبحانه وتعالى به، وهذه العلة والسبب هي ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أي: ظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك. وهي من باب قولهم: قَدَرْتُ على فلان، إذا ضَيَّقْتَ عليه، كما قال الله جَلَّ ثناؤه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾[٣] أي: من ضُيّق عليه رزقه، فليس بموسع عليه، فلينفق بحسب ما أعطاه الله تعالى من الرزق، فليس

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٣/٥)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠١/٣)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٤/٥)

عليه غير ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ظن أن لن نقضي عليه عقوبة، ولا بلاء فيما صنع بقومه، في غضبه إذ غَضب عليهم، وفراره. وعقوبته أخذ النون إياه[١] أي: أخذ الحوت له، بابتلاعه. فالذي جعله يخرج عن قومه هو اعتقاده بأن الله تعالى لن يعاقبه ويقضي عليه بعقوبة التضييق عليه، فهذا الذي جعله يترك قومه، ويذهب عنهم غاضباً عليهم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى حال يونس وهو في الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلما صار في ظلمة جوف بطن الحوت، أخذ يتضرع إلى الله تعالى، فبدأ بتقرير الألوهية لله تعالى ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ فحصر الألوهية في الله تعالى وحده لا شريك له، ونفى الألوهية عن كل مخلوق. فليس لأحد استحقاق فيها أبداً إلا الله عَزَّ وجل. فأخذ ينادي بها ربه تبارك وتعالى. ثم تدرج بعد الإفراد إلى تنزيه ربنا جَلَّ في علاه عن كل ما لا يليق به ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ فهو تنزيه لله تعالى عن الشرك والولد والزوجة والنقص، وجميع ما لا يليق بجلاله ومقامه سبحانه وتعالى.

ثم الإقرار بالذنب، وأنه واحد من عموم الظالمين ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإني قد أوقعت نفسي في الظلم عندما فارقت قومي من دون توجيهك وأمرك وإذنك، فدخلت في عموم الظالمين. فقد خص ماضيه بالظلم ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ليفيد الإقرار بما حصل منه، مع عدوله في حاضره ومستقبله عن فعل ما فعل في ماضيه، فيقرر بذلك التوبة، والعزيمة على عدم العودة لما كان منه من الذنب. وورد في الحديث الصحيح عن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (دعوة ذي النون، إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب اللهُ له)[٢] مما يدل على عظيم ما ألهمه الله تعالى له من القول، وعظيم هداية الله تعالى لعبده ورسوله ذي النون عليه الصلاة والسلام. ويفيد ذلك الحذر من معصية الله تعالى، وأن الله تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على التائبين إذا استغفروا وتابوا إلى الله تعالى.

ثم يخبر عَزَّ وجل باستجابته الكريمة لعبده ونبيه يونس عليه الصلاة والسلام ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فتحقق ليونس عليه السلام ما دعا به وأراده من ربه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٩/١٦)
(٢) الترمذي، صحيح الترمذي، برقم (٣٥٠٥)

تبارك وتعالى ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾ فلبينا له ما دعا به ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ وخَلَّصناه مما كان فيه ﴿ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ أي: من الكرب، وهو وجوده في ظلمات بطن الحوت الذي ابتلعه في البحر.

فإن صورة حاله في بطن الحوت كانت صورة المكروب الذي ضاقت عليه نفسه، فأنجاه الله تعالى برحمته وفضله، بل كانت الاستجابة سريعة بعد الدعاء مباشرة، والتي بينها قوله تعالى ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾ بإضافة حرف السين الذي أفاد المبالغة في الاستجابة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والاستجابة مبالغة في الإجابة. وهي إجابة توبته مما فرط منه. والإنجاء وقع حين الاستجابة، إذ الصحيح أنه ما بقي في بطن الحوت إلا ساعات قليلة[١]

ثم يخبر الله تعالى بما يبشر به المؤمنين من إنجائه سبحانه وتعالى لكل مؤمن بمثل ذلك الإنجاء الذي حصل لرسوله يونس عليه السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وكذلك ننجي المؤمنين ونخلصهم مما يصيبهم من كروبهم وهمومهم. فكما خلصنا ونجينا يونس من كرباته في بطن الحوت حين دعانا، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا بالدعاء والالتجاء إلينا. وفي دلالة كلمة ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ما يبين أهمية الاتصاف والتحلي بالإيمان، والعمل بطاعة الله تعالى، فإن من يقع في كربة وضيق من المؤمنين فإن الله تعالى منجيه. وفي هذا بيان لمكانة الإيمان ومنزلة المؤمنين عند ربهم جَلَّ في علاه، وعونه ولطفه بهم ولهم، وفيه ترغيب وتشجيع للمؤمنين بأن يُكثروا من الصلاح، والدعاء عند مصابهم.

كما يدل ذلك على فضل قول ما قاله يونس عليه الصلاة والسلام ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ كما ورد في الحديث السابق ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم (دعوة ذي النون، إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب اللهُ له)[٢] فإن الله تعالى الذي عاقب يونس بما أصابه، ثم نجاه عندما دعاه من هول ما كان فيه من الغم، فإنه عَزَّ وجل مُنَجِّي كل مكروب من المؤمنين، مهما بلغ كربه إذا دعاه ورجاه، فإنه أرحم الراحمين.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣١٣/٧)

(٢) الترمذي، صحيح الترمذي، برقم (٣٥٠٥)

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وينتقل البيان الكريم إلى جانب من قصة زكريا عليه السلام، منوهاً عنه سبحانه وتعالى بمناقبه الرفيعة العالية، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ فاذكر أيها النبي عبدنا ورسولنا زكريا بمناقبه وفضله، وذلك بحرصه على إقامة ونشر دين ربه تبارك وتعالى، واستمرار ذلك بين الخلق ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ فاذكره حال ندائه لربه تبارك وتعالى. والنداء هو الدعاء، وهو الطلب، والرجاء والالتجاء، وكونه نادى بدعائه ربه تبارك وتعالى، فإنه يعني الاستجداء والاستغاثة، وكلمة النداء في هذا المقام تدل على قوة التضرع والالتجاء، في توجهه إلى الله تبارك وتعالى ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ وقد ورد في سورة مريم أنه كان ﴿ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ أي: سراً، تأدباً مع ربه تبارك وتعالى، وبُعداً عن مواطن الرياء، وتحقيقاً للإخلاص. ويُطلق النداء على رفع الصوت بالإعلام والطلب، إلا أنه وُصِف بالخفي، وفي الجمع بين صفة الدعاء بأنه كان نداء ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ وبين النداء الخفي ﴿ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ أنه كان في حق زكريا استجداء في الدعاء إلى درجة أنه يشبه في قوته بمن ينادي من شدة رغبته في سماع صوته وطلبه، ومع هذه الرغبة الملحة في الطلب إلا أنه كان ﴿ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ خافتاً، وذلك لعلمه أن الله تعالى يسمع إلحاحه في الدعاء وإن كان خفياً خافتاً.

وقد رفع الدعاء والتضرع لربه تبارك وتعالى ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ وفي ذلك إعلان الربوبية لله تعالى، وإعلان توحيد الله عَزَّ وجل، وإعلان عبوديته لله جَلَّ جلاله. ثم يأتي تقرير الله تعالى وشهادته له بذلك، بأنه كان ﴿ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ وفي ذكر زكريا عليه السلام في كتاب الله العظيم القرآن الكريم، ما يدل على تمجيد الله تعالى لزكريا، ولشأنه ومنزلته، وأن في ذكره منفعة لغيره، وتعظيماً لشأنه.

وكان هذا النداء، هو استجداء طلب الولد ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ فدعا ربه تبارك وتعالى بالربوبية ﴿ رَبِّ ﴾ الذي يبين منزلة الدعاء بهذا الاسم الذي يحمل صفة الربوبية، بأنه رب كل شيء ومالكه، فبعد أن بدأ بالنداء لربه تبارك وتعالى، أورد طلبه ﴿ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ لا تتركني وحيداً، لا ولد لي، منقطعاً من الذرية. ومقصده من ذلك الولد أن يرث الذي يطمع إليه، وهو أن يرث الدعوة إلى الله تعالى، فيقوم بحقها، وهذا من شدة ولعه بدين الله تعالى، ومحبته ونصحه للعباد.

ومن جميل دعاء زكريا عليه السلام أنه ربط بين طلب الولد الذي يرثه وبين ميراث الله تعالى ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ وفي سورة مريم أورد علة الدعاء بأنه ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ بينما هنا أورد الانفراد ﴿ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ فهو ورث قاصر، ينتهي إلى أجل مسمى، وميراث الله تعالى ثابت دائم لكل شيء خلقه ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ فإنه إرث قاصر لا يداني إرثك يا ربنا لخلقك أجمعين، فإرثك كائن للخلق كلهم بعد فنائهم، فإنك حي باق بعد موت الخلائق. وفي قوله ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ رد الأمر إلى الله تعالى، وإثبات الفناء للخلق، وأن الله تعالى حي لا يموت سبحانه عَزَّ وجل ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ وهو ثناء ودعاء يتناسب مع ما سأل، فهو ثناء على الله تعالى بأنه الباقي بعد فناء الخلق، وأنه الحي الباقي سبحانه وتعالى، وأن غيره من المخلوقات تفنى وتزول، فلا يبقى إلا الله تبارك وتعالى. وكذلك متضمناً لعلة سؤال الولد، بأنه من أجل أن يرثني. وكان مقصده من الإرث هو أن يرث الدين، والدعوة إلى الله تعالى، كما بينته الآيات في سورة مريم أكثر تفصيلا، ومن قبل في سورة آل عمران، وهنا ورد مختصراً.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى باستجابته لزكريا، مع بيان ما كان عليه زكريا عليه السلام وأهله من الصلاح ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ فباشرناه بالاستجابة لدعائه وطلبه ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ فأجبنا مسألته مباشرة ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ ورزقناه هبة مِنَّا يحي عليه السلام ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ فبعد أن كانت عاقراً، لا يصلح منها الولد، أصلح الله تعالى حالها للحمل. وعن قتادة: كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً، ووهب له منها يحيى. وقال آخرون: كانت سيئة الْخُلُق،

فأصلحها اللهُ تعالى له، بأن رزقها حُسن الخلق[١] فجمع الله تعالى له بين صلاحها للحمل والولادة، وصلاحها في أخلاقها. ومن دقائق البيان أن الله تعالى أظهر علة إصلاح زوجته له على وجه العموم ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾ فلم يقصره على صلاحها للحمل، بل كان صلاحاً عاماً، ومنه صلاح الحمل، وأن هذا الصلاح هو من أجله ﴿لَهُۥ﴾ أي: لزكريا ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ﴾ ووقع الإصلاح على الزوجة ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ وهذه من دقائق السياق الموضح للعلل والأسباب بأدق الألفاظ والسياق، مع أقل الكلمات. فإكراماً له حصل الصلاح لزوجته، مما يبين أن صلاح الزوج ينعكس على صلاح الزوجة المؤمنة، وأن صلاح الزوجة ينعكس على صلاح الزوج المؤمن، وأن حصول الخير لأحدهما يشمل الآخر بتوفيق الله تعالى وعظيم كرمه. كما يبين أن الأسباب بيد الله عَزَّ وجل، وأنها من سننه تبارك وتعالى في الحياة. ففي إصلاح سنن موانع الحمل من الزوجة دليل على أن أمور الحياة تسير وفق سنن الله تعالى. وأن المؤمن يلتجئ إلى ربه حال امتناع الأسباب، فهو الذي يغيرها متى شاء، وكيف يشاء.

ثم يذكر ويبين الله تعالى حال جميع من سبق من الأنبياء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: يعني الأنبياء الْمُسَمَّين في هذه السورة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وقيل الكناية راجعة إلى زكريا وامرأته ويحي[٢] فالآية الكريمة باعتبار الأنبياء فإنها مبينة لحالهم وواقعهم ومنهجهم في طاعة الله تعالى. وهي ثلاث أسباب قد تحلى بها المذكورين من الأنبياء في هذه السورة المباركة الكريمة العظيمة. وعلى اعتبار أنها راجعة لأقرب مذكورين، وهم: زكريا وزوجه وابنه يحيى، فزكريا نبي، ويحي نبي، وزوجة زكريا قد أصلحها الله تعالى، فتفيد صلاحهم، فتكون قد جمعت الآية السابقين من الأنبياء، وكذلك أقرب المذكورين، ولا تناقض ولا تضاد، فإن السياق لا ينفي ولا يستبعد الأمرين معاً، وهذا من بلاغة البيان بأن جمع في مبناه وسياقه الدلالتين معاً.

فالسبب الأول ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى كل خير بالأخذ به وفعله وتطبيقه، بمقتضى نوعه ووقته بأكمل وأفضل وجه، فلا يتركون خيراً هم قادرن على فعله إلا وفعلوه، فإنهم ينتهزون الفرص، ويستثمرونها في طاعة الله تعالى. فكلمة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ تدل على المبالغة في المبادرة، إلى درجة الإسراع إلى تحقيقها، سواء بمقتضى وقتها، أو بمقتضى نوعها، من عموم الطاعات والعبادات

---

[١]الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٣٨٨)

[٢]القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٢٢)

المفروضة، أو المستحبة، وسواء من النوافل أو غيرها مما يحبه الله تعالى ويرضاه. كما جمعت لفظة ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ جميع أصناف الفضائل والطاعات، سواء ما كان ذلك الأمر الذي يسارعون فيه من العبادات الواجبة، أو النوافل، وسواء كانت متعلقة بالخالق عَزَّ وجل، أو متعلقة بالمخلوقين، بمبادرتهم بالإعانة والخير الذي يستطيعون، وفي نوع الحاجة التي يحتاجها غيرهم منهم. مما يبين أهمية المسارعة في الطاعة، والنوافل، ومد الخير في جميع أوجهه، من غير تردد فيه، فإن ذلك يحقق مرضاة الله تعالى عن العبد، ويكون سبباً في استجابة دعائه، وتحقيق طلبه ومراده. وهذا يبين فائدة المسارعة في فعل الخيرات بجميع أنواعها، سواء ما كان متعلقاً بالخالق كالعبادات، أو متعلق بالمخلوقين كالإحسان إليهم بأوجه الإحسان، بحيث لا يدخر المؤمن وسعاً في ذلك، بل يسارع ويبادر فيه بكل وسعه وطاقته.

والسبب الثاني: التزامهم الدعاء ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ فقد كانوا يجمعون في دعائهم بين رجاء ما عند الله تعالى من كريم العطاء، الذي هو ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ وبين مخافتهم من الله تعالى، الذي هو معنى ﴿وَرَهَبًا﴾ فيدعون الله تعالى رغبة فيما عنده من عظيم العطاء في الدنيا والآخرة، ويدعون الله تعالى تعوذاً مما يخافونه في الدنيا والآخرة؛ من مضار الدارين، مما يدل على جمعهم بين مخافتهم من الله تعالى، وبين الرجاء في الله تعالى، فابتعدوا عن مواطن الغفلة. لأن الرغبة في الله جَلَّ جله تجعلهم يؤملون الخير من عند الله تعالى، فيتجهون له بالدعاء والتوسل والتذلل والافتقار. والرهبة من الله تعالى تجعلهم يمتنعون عن معصية الله تعالى، ويستعيذون به منها، ومن خزي الدنيا والآخرة. مما يبين أهمية الخشية من الله تعالى، وأهمية الأمل في الله تعالى، وفي خيره وبره وكريم عطائه عَزَّ وجل، وأن يعيش المؤمن راغباً غير قانط في خير الله تعالى ورحمته، ومتباعداً عن اليأس من رحمة الله تعالى، ويكون خائفاً من أن يعصي الله تعالى فيحل عليه عقابه ونقمته وانتقامه ومعاقبته له.

والسبب الثالث: وهو الخشوع ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: متذللين، مخبتين، متضرعين، ومتواضعين، فحالهم منافي للكبر والتجبر. مما يفيد تذللهم لله تعالى، وذلك بسبب الخشوع، الذي هو الخوف الملازم للقلب، الظاهر في السلوك وعلى الجوارح، والأفعال وعموم التصرفات، دون اضطراب. وهذه من نعمة الخشوع لله تعالى، بأنه لا يصاحبه اضطراب، بل تصاحبه الطمأنينة. وهذا يبين فائدة ومنزلة الخشوع لله تعالى بالتذلل والاخبات، والتضرع والتواضع لله تبارك وتعالى، فإن ذلك مفتاح للخير. فإن تعاضد المسارعة في الخيرات مع الدعاء المتصف بالرغبة والرهبة وكذلك الخشوع لله تعالى، فإنها ثلاثة قوى إذا تآزرت استجلبت فيض رحمة الله تعالى على المؤمن في الدنيا والآخرة، وكانت داعمة لمحبة الله تعالى له، ومعاضدة في إنجاء الله تعالى له من كل كرب، ومحققة له ما يطمع فيه من خير الدنيا والآخرة، وكانت السبب في استجابة دعائه وابتهاله إلى الله تبارك وتعالى.

ويختم الله سبحانه وتعالى ذكر هؤلاء الأنبياء بذكر مريم بنت عمران، أم رسول الله عيسى عليهما السلام، ممتدحاً لها بعفتها وعظيم شرفها، وامتنانه عليها عَزَّ وجل بعيسى آية للعالمين، وقد تم ذكرها بعد الأنبياء ليتم ذكر ابنها النبي عيسى عليه الصلاة والسلام، وتشريفاً وتكريماً لها. فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ واذكر أيها النبي مع هؤلاء الصفوة من الأنبياء جانباً من قصة مريم بنت عمران عليها السلام ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ التي اتصفت بحفظ فرجها من الحرام. ومن جليل عفتها أن ربنا تبارك وتعالى لم يذكرها باسمها، بل ذكرها بما اتصفت به ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ على اعتبار أن هذه الصفة من العفة قد أصبحت سجية لها، فأضحت هذه الصفة إذا ذُكرت فإنها تعني مريم بنت عمران، وهذا من المبالغة في وصفها والثناء عليها. والمبالغة هي امتداد مدحها بالتحصين والعفة إلى أقصى دلالاته وغايته ومنتهاه. مما يدل على محبة الله تعالى للمتعففة عن الحرام، وعلو منزلتها الكريمة عند ربها تبارك وتعالى.

وقد تم ذِكْرُ عفتها بلفظة التحصين ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ﴾ والذي يفيد المنع، بأن منعت نفسها من الفواحش، فإن مَن منعت فرجها من الزنى فقد منعت جميع ما هو دونه من الفواحش، مع عظيم صلاحها وعبادتها لربها وتقواها، فأثابها الله تبارك وتعالى بأن رزقها الولد من غير أب، وجعله نبياً رسولاً ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فأمرنا جبريل عليه السلام بالنفخ في جيب ثوبها، فأحدث ذلك النفخ أن حملت بعيسى عليه السلام. وأضاف سبحانه وتعالى النفخ والروح إليه عَزَّ وجل تشريفاً وتكريماً وعناية.

وقد تم ذكر قصة مريم وابنها عيسى في تدرج وتناسق بديع، بعد أن ذكر ربنا سبحانه وتعالى زكريا الذي رزقه الله تعالى الولد على شيخوخته، وامرأته عاقر، فخالف الله تعالى له السنن، ليكون إعجازاً وبياناً لقدرته عَزَّ وجل، ثم تلاها بقصة مريم التي أنجبت عيسى ابن مريم من غير أب، مخالفاً ما سَنَّه عَزَّ وجل من سُنن في هذا الشأن، ليبين للعباد قدرته ومشيئته جَلَّ جلاله. وأن الذي سَنَّ السنن قادر على أن يخالفها، ليُظهر عظيم سلطانه وكريم امتنانه، وجلالة قدرته وعظمتها، وأنه هو الذي وضع هذه السنن للعباد في الحمل والإنجاب، وأنه هو المدبر، وأنه إذا أراد شيئاً خالف به عوالم السنن في كونه الواسع العظيم. ليتعظ الإنسان، ويدرك قوة سلطان الله تعالى، وكمال وجمال تدبيره، وعظيم حكمته وحكمه، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه على كل شيء قدير، فلا ييأس المؤمن من قوة امتناع الأسباب، ولا يفرح بقوة امتلاك الأسباب، فهو المانع لها، وهو الميسر لها. فلا يغتر المؤمن ولا ييأس فإن الله تعال على كل شيء قدير، ولا يفرح بالاعتماد على الأسباب، بل يحمد الله تعالى على تسخيره لتلك الأسباب، ويأمل بها من ربه مبتغاه ومناه.

ولذلك جعل الله تبارك وتعالى مريم وابنها آية ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: دلالة على كمال قدرة الله تعالى، بهذا الأمر الخارق للعادة، إذ لم يسبقه مِثله، ولم يأت بعده مثله. فيخلق الولد من غير أب، كما يسر الحمل لمن فقد أسبابه بالعقم وكبر السن، فإن الله تعالى على كل شيء قدير. فكان حمل مريم وابنها عيسى معجزة وآية بينة، دالة على كمال قدرته سبحانه وتعالى على جميع العباد بلا استثناء.

ومن دقائق البيان: أن الله تعالى ذكر مريم وذكر ابنها عيسى عليهما السلام منفردين، كل واحد منهما على حده ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ﴾ ثم وَحَّد لفظ الآية ﴿ ءَايَةً ﴾ ولم يجعلهما آيتين، بل قال تعالى ﴿ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ بالرغم من أن مريم آية في حملها، وعيسى آية كونه من غير أب. فوحد كلمة الآية سبحانه وتعالى ولم يثنيها لأن مريم وابنها يشكلان آية فيما يخص قدرته سبحانه وتعالى. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قال الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين، لأن معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين[١] وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: لأن معنى الكلام: جعلناهما علماً لنا وحجة، فكل واحدة منهما في معنى الدلالة على الله، وعلى عظيم قدرته يقوم مقام الآخر إذا كان أمرهما في الدلالة على الله واحداً[٢] وقال الزجاج رحمه الله تعالى: لما كان شأنهما واحداً، كانت الآية فيهما آية واحدة، وهي ولادة من غير فحل[٣] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ومن لطائف هذا الإفراد أن بين مريم وابنها حالة مشتركة، هي آية واحدة. ثم في كل منهما آية أخرى مستقلة باختلاف حال الناظر المتأمل[٤] وهذا من دقائق البيان، وإعجازه البلاغي والبياني. فسبحان من أظهر إعجازه في بيانه كما أظهره في خلقه وتدبيره وسلطانه.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى التنوع في قصص الأنبياء، وما فيها من الآيات والعبر، يشير تبارك وتعالى إلى وحدة الملة، بوحدة ما دعا إليه جميع الأنبياء من توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وعبوديته، ونبذ الشرك، والتزام توحيده بالعبادة والألوهية والربوبية ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ إن هذه ملتكم ملة واحدة، فالأمة هنا بمعنى الدين، الذي هو الإسلام. فأصل الأمة الجماعة التي هي على منهج ومقصد واحد، فجعل الله تبارك وتعالى دينه وشرعه مقصد واحد في أمة واحدة. فأبطل جَلَّ جلاله جميع ما سوى الإسلام من الأديان. فالملة التي جاء بها الأنبياء هي ملتكم ودينكم أيها العباد، فدين

---

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٦/١١)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٢/١٦)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٧/٥)

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣١٧/٧)

الله تعالى واحد، وربكم واحد ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فأنا ربكم، لا غيري رباً لكم، فالتزموا عبادتي وحدي، بما يوجب عليكم نفي الشرك، وصرف العبادة لله تعالى وحده لا شريك له. وقد أكد ذلك بأن حصر سبحانه وتعالى الربوبية فيه وحده لا شريك له ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ فأنا ربكم، لا غيري رباً لكم، بعد أن عطفها على ما قبلها، بأن دينكم الذي جاء به المرسلون واحد من لدنه عَزَّ وجل. ثم أنهى البيان بأمر الوجوب ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ فاعبدوا ربكم وحده لا شريك له، فاصرفوا العبادة لي وحدي وِفْقَ ما أمرتكم به، ولا تشركوا معي غيري. وفي هذا غاية البيان بتحريم الشريك، وأنه كفر، منافي لما أمر الله تعالى به. وأن دين الله تعالى واحد في أصله. وإن اختلف الأنبياء في تفاصيل التشريع وفق ما نزلت به الكتب السماوية.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى وحدة هذا الدين الذي تتابعت به الرسل من ربهم عَزَّ وجل، يخبر جَلَّ جلاله بإن هناك مَن اختلف على ما جاءت به الرسل، وانحرفوا به عن حقيقته. مما يبين ويكشف أن حال الناس في دين الله تعالى على تباين واختلاف، وعلى غير اتفاق ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ فقد اختلف الناس على رسلهم، وتفرق أتباع المرسلين فرقاً متوزعة، وفي شتات متباين واختلاف، فكل يَدَّعي أن الحق معه وله، وقد وصف الله تعالى تفرقهم بالتقطع ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أي كان حالهم حال المتقطع والمتمزق عن أصله، فأصبحوا قطعاً متوزعة في شأن الدين، فكانوا فرقاً متعددة، بل وأسند فعل وإحداث التقطيع إليهم، ليفيد التزعُّم والافتعال بأنه كان منهم هذا التفرق، ولم يردوا الأمر إلى لله تعالى وإلى رُسلهم، فلو ردوه إلى ما جاء به المرسلون لما تقطعوا. وفي تسمية الدين الذي تفرقوا فيه ﴿أَمۡرَهُم﴾ ونسبتهم إليه، ما يفيد أن هذا الدين هو قوتهم وشأنهم الذي يجمعهم، فهو ﴿أَمۡرَهُم﴾ الذي كان الواجب والمفروض عليهم أن يلتفوا حوله، ويعتضدوا به، ولكنهم تفرقوا فيما يجب أن يجتمعوا عليه ويجمعهم.

واستوعبت دلالة ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ تفرق اتباع الدين الواحد بينهم، وكل يدعي أن الحق معه، والباطل مع غيره، فيعادي بعضهم بعضا. وكذلك استوعبت من نأى وانفصل عن الدين كلياً، وأصبح بمفارقته ونأيه خارجاً عن الملة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والمراد جميع الخلق، أي: جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً، وتقسموه بينهم، فمن موحد، ومن يهودي، ومن نصراني، ومن عابد ملك أو صنم[1] فاستوعبت الآية الكريمة جميع أصناف التفرق، وأحواله، فاستوعبت الذين تفرقوا من أتباع المرسلين بينهم إلى فرق، ومن تفرق أصلاً عن الدين

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٢٤-٢٢٥)

وانقطع ونأى بنفسه عنه كالمشركين، وهذا من دقائق البيان في استيعابه لمقاصده من غير تكرار في البيان، وهو إعجاز بلاغي عظيم.

ثم يبين تبارك وتعالى عاقبة هذا التمزق والتقطع المفتعل من عند أنفسهم ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ فمرجعهم إليه سبحانه وتعالى، فيحكم فيهم بما يستحقون، وهي جملة تفيد التهديد والتحذير، والتهويل لمصير المتفرق والمتقطع بنفسه عن أصل الدين الذي جاء من عند الله تبارك وتعالى. مما يفيد أهمية الاعتصام بالدين، ووحدته، وعدم التفرق، وعدم الانتصار للرأي المخالف للدين، فكل انتصار مخالف للدين هو من أجل الانتصار للرأي، دون التأمل والتدبر وسماع الحق. كما يفيد هذا التحذير من الافتراق في الدين، وأن من اعتصم بالله تعالى وبدينه القويم لن ينحرف، ولن يستقطع نفسه من أصل الدين.

ثم يبين تبارك وتعالى كمال عدله باستيفاء ثواب ما وعد به؛ لمن التزم دينه وفق ما أمر به عَزَّ وجل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ فمن يلتزم ما شرعه الله تعالى لعباده مع الإيمان الصادق فإن الله عَزَّ وجل لن يفقده ثواب سعيه بطاعته لربه تبارك وتعالى، مؤكداً ذلك سبحانه وتعالى بإثبات ذلك العمل الصالح في كتاب ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ أي: مقيدون أعمالهم في كتاب، لإثبات الإحصاء والجزاء.

ودلت جملة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ ﴾ استيعاب جميع مفردات العمل، سواء كان العمل قليلاً أو كثيراً، وأوضحت وضبطت ما بعدها المقصود، وهي ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فمن يعمل شيئاً من الصالحات أياً كان نوعه ومقداره فإنه في كتاب. وفي هذا ترغيب في العمل الصالح مهما كان صغيراً أو قليلاً، وأن استقصاءه كله يتعذر على المكلفين لتباين قدرات الناس. فإن فقدان بعض الشيء من فعل الحسنات لا يلغي غيره عند الله تعالى، طالما التزم العبد الموحد بالإيمان والفرائض، التي هي أساس الدين. لأنه قد يحصل النقص من المكلفين. وفي هذا مراعاة للطبيعة البشرية وقدراتها، مما يبين أن هذا الدين هو دين الفطرة والكمال والتمام. وأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف العباد إلا بما يستطيعون، وأنه من رحمته وكرمه عَزَّ وجل يراعي استطاعتهم، وهو أعلم وأعرف باستطاعة كل واحد من عباده.

كما بينت جملة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ ﴾ أن هناك من يعمل، وهناك من لا يعمل، فهما طرفان متقابلان لا يستويان، فيقابل من يعمل أن هناك من لا يعمل، لاختلاف الناس وتباينهم في الطاعة. كما أوضحت وبينت جملة ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ كثرة الصالحات من الطاعات المتنوعة. وأفادت ﴿ مِنَ ﴾ التبعيض، أي

شيء من الصالحات، كما أفادت ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أن التحصيل للطاعات من العباد متنوع ومتفاوت. فأي جزء أو فرع أو نوع من الصالحات قام به المسلم فإنه في كتاب، وسواء كان قليلاً أو كثيراً. واشترط لذلك القبول: اقتران الإيمان بالعمل الصالح حتى يقبل ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: مصدقاً بمحمد صلى الله عليه وسلم[1] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مما يفيد أن من عمل صالحاً من غير المؤمنين لا يقبل منه. إذ يتحقق بالشرطين المذكورين انتفاء نكران وجحود سعيه ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ فلن تُجحد ولن تُلغى وتحجب أعماله الصالحة، ولن يُبخس ولن يُظلم في شيء له مما عمل من الصالحات، ونسأل الله تعالى التوفيق لما يحبه ويرضاه، وأن تكون أعمالنا على الوجه الذي يرضيه عنا سبحانه وتعالى.

وقد أكد تبارك وتعالى ضمان الجزاء، وضمان إثبات العمل الصالح بقوله عَزَّ وجل ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ فلن تُجحد ولن تُلغى وتحجب أعماله الصالحة، ولن يُبخس ولن يُظلم في شيء له مما عمل من الصالحات، فقطعاً سيحصل على مقابله مهما كان ذلك العمل، والكفر هنا بمعنى الجحود والحجب، بعدم الاعتراف بما صنع من الصالحات، فنفى سبحانه وتعالى حصول ذلك في حكمه وعدله، وهو أعدل العادلين وأرحم الراحمين سبحانه وتعالى. ثم أكد إثباته في الصحف ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ بأنه يُثبت ذلك العمل الصالح بكتابته في الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيوفى كل أحد بما يستحق. في هذا بيان لعدل الله تعالى وكماله، وتشجيعاً للمؤمن بأن يزداد من فعل الخيرات، وأن يسارع فيها، ولا يحتقر قليلها وصغيرها، بل يسارع فيها ولها، فإنها مدخرات له يوم الحساب والجزاء.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً
مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٢٥)

يخبر الله تبارك وتعالى بحال ومستقبل مَن أهلكهم عَزَّ وجل بالعذاب من أهل القرى ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فإنه يحرم ويمتنع ويستحيل على من أهلكهم الله تعالى من أهل الأمصار العودة للدنيا بعد إهلاكهم بالعذاب، فإن العودة للدنيا تمتنع عليهم ليتمكنوا من استدراك ما فرطوا فيه بعد كفرهم بآيات الله تعالى، وصدودهم وامتناعهم عن طاعة الله جَلَّ جلاله. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني قد قُدِّر أن أهل كل قرية أُهلِكُوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة(١) مما يفيد: أن من مات فقد توقف عمله للآخرة، ولا سبيل للكافرين أي مجال للعدول عما كان منهم من الكفر. فيا أيها الإنسان اغتنم حياتك في الدنيا بما تنتفع به في الآخرة، فإنه إذا انقضى العمر وانتهى فلا رجعة لإصلاح ما كان فاسداً منك. ففي ذلك بيان وتحذير، وترهيب، وحث على اغتنام الحاضر قبل الزوال.

ثم يزداد التحذير والوعظ للعباد ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فإنه إذا فُتح سد يأجوج ومأجوج، وانطلقوا انتشاراً في الأرض، فإنه يكون قد دنا يوم القيامة. وقد أفادت جملة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ﴾ بيان الغاية التي يدنوا فيها يوم القيامة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ حتى إذا فُتح السد عن يأجوج ومأجوج. وهما أمتان وقبيلتان من الناس، وقد سد عليهم ذو القرنين ردماً حين اشتكى عليه المتأذون من فسادهم ذلك الوقت، وفي آخر الزمان ينفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس، ويسعون في الأرض فسادا ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ وهم من كل جهة من الأرض يخرجون. والحدب هو ما ارتفع من الأرض ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ أي: يخرجون مسرعين، مما يدل على كثرتهم، وتلهفهم للخروج والسعي في الأرض فسادا. قال ابن كثير: أي: يُسرعون في المشي إلى الفساد. والحدب هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة، وأبو صالح، والثوري وغيرهم(٢) فإذا جاء وعد الله تعالى الذي حدده لخروج يأجوج ومأجوج فإنه يجعل الرَّدم الذي هو السد متهدماً، مستوياً بالأرض، فسوف ينهار ذلك السد الذي أُتقِن وأُحكِم بناؤه من قِبَل ذي القرنين، فيصبح أمام إرادة الله تعالى مدكوكاً ومتهشماً، ومستويا بالأرض. ويوم يتهشم ويتهدم السد بقدرة الله تعالى، فإنهم يعتلجون بعضهم في بعض، ويتفرقون. ففي خروجهم تخريب وإفساد لحياة الناس. وفي هذا إعلام بالغيب الذي سيكون عليه الناس حين اقتراب الساعة. وقد تم ذكرهم بشيء من التفصيل في سور الكهف. فنسأل الله تعالى السلامة والتوفيق.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٠٤)

(٢) المرجع السابق(٣/٢٠٤)

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بأن انفتاح السد عن يأجوج ومأجوج، وخروجهم منه، وانطلاقهم من مرتفعات الأرض، وانتشارهم مسرعين في جنباتها، فإن ذلك دليل على دنو واقتراب يوم القيامة ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فبخروج يأجوج ومأجوج يكون قد اقترب وشارف الوعد بيوم القيامة ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ وقد سماه الله جَلَّ في علاه ﴿ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ لأنه كائن كما وعد الله تبارك وتعالى به. وهو وعده عَزَّ وجل الذي لا ريب ولا شك فيه، بأنه متحقق كما وعد به عباده ببعثهم من قبورهم للحساب والثواب والعقاب، فيكون قد تحقق ما أخبر به عَزَّ وجل من أمارات الساعة. وعندها تكون حالة الكافرين كما وصفهم سبحانه وتعالى ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فعند رؤية الكافرين أهوال يوم القيامة تشخص أبصارهم، وهو فتحها إلى درجة أنه لا يستطيع صاحبها تحريكها لشدة هول ما يرى، ويقولون ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي: يا هلاكنا، وتعاستنا، فهو دعاء مشتمل على الحسرة على تفويت ما مضى مع الخوف الذي تحقق لهم فيه ما وعدهم الله تعالى به.

ثم أكدوا حسرتهم بما قاله الله تعالى عنهم ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا﴾ قد كنا في الدنيا في غفلة من هذا اليوم الذي هو يوم القيامة. ثم عدلوا عن قولهم ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا﴾ بحرف ﴿بَلۡ﴾ معترفين أن الحق كان واضحاً، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود. فأكدوا انتفاء الغفلة عنهم بدلالة ﴿بَلۡ﴾ التي أفادت نفي الغفلة عن أنفسهم بما جاءهم من الحق، وإثبات ما بعده، وهو ظلمهم لأنفسهم ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: بامتناعنا عما جاءنا من الحق، فأوقعوا الظلم على أنفسهم بما كان منهم من التحدي والتكبر والتعالي على الحق ونبذه. ومن فوائد انتقالهم من تقرير الغفلة على أنفسهم إلى تقرير الظلم ما يبين عظيم الذهول الذي أصابهم لما رأوا الحقيقة، فعمدوا إلى تحري موقع علة الويل ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ فتبادر إلى ذهنهم الغفلة، ثم وجدوا أنها ليست هي السبب، لعدم وجود مبررها، بل أن السبب هو نكران الحق وجحوده ظلماً وعدواناً، فقرروا إيقاع الظلم على أنفسهم والاعتراف به ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فهذه حالة الإنسان الكافر عندما يعاين العذاب.

ومن سعة فوائد البيان أنه أعطى حقيقة ما هو قادم، ليكون ذلك إنذار لكل أحد من الناس بما سيكون الحال عليه، وكأنه يراه، فأعطى الله تبارك وتعالى العباد حقيقة ما سيقدمون عليه، وكشف لهم حال

الإنسان ذلك الوقت كيف يكون قبل أن يكون، وهذا من الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم، الذي يستثير في القلوب تغليب الحق على الباطل، وتغليب التمسك بالإيمان والطاعة على المكابرة، وتغليب ضبط النفس على الانطلاق في الشهوات والشبهات. فاشتمل على كمال الترغيب والترهيب. فسبحان الله تعالى الذي ظهرت آياته في كل شيء، ومنها كتابه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل أبداً. اللهم إنا نسألك السلامة والنجاة يا رب العالمين، يا أرحم الراحمين.

ثم يزيد الله تعالى من تشديد الوعيد للمشركين، وبيان مآلهم ومآل ما يعبدون من الأصنام، بأنهم وقود للنار ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ فيا أيها المشركون بربكم بما عبدتم من المعبودات التي لا تغني عنكم من الله شيئاً ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فإنكم أنتم أيها المشركون ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من الأصنام ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أي: مُلقون في جهنم، فتشتعل بكم نار جهنم برميكم فيها. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: الحصب: ما أُلقي فيها، وأصله من الحصباء، وهو الحصى، يُقال: حصبت فلاناً، إذا رميته حصْباً. وما رميت به فهو حَصَب[١] فأنتم مُلقون في النار ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ أي أنتم أيها المشركون داخلون فيها، أي: أنت وما كنتم تعبدون من الأصنام، ومن رضي أن يُعبد من دون الله تعالى ﴿ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ للنار وافدون وداخلون فيها، دخولاً حتمياً لا مفر لكم منه. وغَلَّب النص الكريم العابدين من المشركين على المعبودين باسم المخاطب ﴿ أَنتُمْ ﴾ أيها المخاطبون المشركون، العابدون للأصنام، بالرغم من شموليتها للعابدين والمعبودين، لأنهم هم المعنيون بالخطاب والبيان والإنذار والترهيب.

وكذلك أكد تعيين ما يُلْقَون فيه باسم الإشارة ﴿ لَهَا ﴾ والورود هو المجيء والوفود والقدوم للشيء الموجود مسبقاً. فذلك من دقائق الإعجاز في البيان. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي فيها داخلون. والخطاب للمشركين عبدة الأصنام، أي أنتم واردوها مع الأصنام، ويجوز أن يُقال: الخطاب للأصنام وعبدتها. لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بكنايات الآدميين. قال العلماء: لا يدخل في هذا عيسى ولا عزير، ولا الملائكة صلوات الله عليهم، لأن ﴿ وَمَا ﴾ لغير الآدميين، فلو أراد ذلك لقال: (ومن)[٢] وهذا من دقة وقوة بلاغة السياق، وغزارة معطياته البيانية، حيث أظهر الله تبارك وتعالى الإعجاز في دقائق الألفاظ، إذا عَيَّن الخطاب

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٠/٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٨/١١)

أولاً: المشركين ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ مؤكداً ذلك بحرف التأكيد **(إِنَّ)** ثم تلاها المعبودات ﴿ **وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ وعَيَّن المعبودات بحرف **(ما)** فانحصرت بأداة ﴿ **وَمَا** ﴾ التي لا تكون وفق السياق إلا لغير العاقل من الجمادات، فخرج بذلك كل معبود من دون الله تعالى من غير الجمادات، كعيسى ابن مريم، وعزير عند النصارى، والملائكة، وغيرهم ممن عُبِد من الصالحين، فطافوا بقبورهم، وسألوهم واستغاثوا بهم. فلو كانت بحرف (من) ومَن تعبدون، لشملت العاقل وغير العاقل. وانتفاء العاقل الذي لا يرضى أن يكون معبوداً من دون الله تعالى محكوم به عقلاً وعدلاً، بأنه لا يدخل فيهم البتة، ولم تعط ﴿ **وَمَا** ﴾ تلك الدلالة، لأنه لم يدع لنفسه العبودية، ولم يرض بها.

ثم يبين سبحانه وتعالى الحجة والبرهان الذي يوضح بطلان معبودات المشركين التي يعبدونها من دونه سبحانه وتعالى ﴿ **لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ فلو كانت تلك المعبودات التي تعبدونها من الأصنام آلهة حقيقية لما وردت النار ودخلت فيها ﴿ **لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا** ﴾ ثم يؤكد دخول العابد والمعبود من الأصنام في نار جهنم ﴿ **وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ فالجميع مخلدون في النار، فلا يخرجون منها أبداً.

ثم يبين حالهم في نار جهنم ﴿ **لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ** ﴾ فالحال الأول: ﴿ **لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ** ﴾ فلهؤلاء الذين وردوا النار ﴿ **زَفِيرٌ** ﴾ وهو صوت شدة النفس من الأنين عند خروجه، والذي يُظهر شدة ما هو فيه من الألم. مما يفيد أنه لا موت لهم في النار، بل ألم من عذاب شديد، لا يفتر عنهم أبداً. والحال الثاني: ﴿ **وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ** ﴾ فمن شدة الهول، وقوة ما هم فيه لا يسمعون زفير بعضهم بعضا، فكل في عذابه مشغول عن غيره. وفي هذا غاية البيان لما هو قادم ومُستحق لكل من كفر بالله تعالى. وهو إنذار وبلاغ وتحذير وترهيب لمن أراد النجاة. وهذا التحذير هو من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ ينذرهم ويحذرهم، ويبين لهم ما سيكون قبل أن يكون.

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ**

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

لما ذكر الله عَزَّ وجل أهل النار من المشركين وما يعبدون من دونه سبحانه وتعالى، تدرج السياق الكريم إلى بيان المستبعدون عن النار من عباده، فقال جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فإن الذين سبقت لهم في علم الله تعالى السعادة، بما كُتِبَ لهم في اللوح المحفوظ فإنهم مُبعدون عن جهنم، لأن علم الله تعالى سابق لعمل العباد. قال السعدي رحمه الله تعالى: إن الذين سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله تعالى، وفي اللوح المحفوظ، وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة(١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فهم مُبْعَدُون عن النار. ودلالة كلمة ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ تستوفي جميع خصال السعادة، والتي هي كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أحسن الخصال، وهي السعادة، وقيل التوفيق، أو التبشير بالجنة، أو نفس الجنة(٢) فجمعت دلالتها جمع أصنافها.

فإن الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى عن النار مبعدون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فإنهم بما سبق لهم من الله تعالى فإنهم عن النار مُبْعَدُون. فينتفي بهذا التقرير الإلهي الرباني أن كل من عُبِد من غير الله تعالى من الملائكة وعيسى ابن مريم، وعزير ونحوهم ممن لم يرض بذلك، وهم على طاعة الله تعالى قائمون؛ فإنهم ليسوا ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾: عيسى، وعزير، والملائكة(٣) لأن كل من عُبِدَ من غير رضاه فلا يتحمل إثم ووزر من عبدوه، كالذين ماتوا من الصالحين، فجعلهم بعض أتباعهم وسطاء وشفعاء لهم، فيتقربون لهم بالقرابين، فدخلوا في دائرة الشرك من غير رضاً من المعبود. وأما من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عَبَدَه في النار.

ثم يخبر الله تعالى عن حال من سبقت لهم الحسنى بأنهم في حال عظيمة من السعادة ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ فإنهم لا يسمعون لهيب النار، ولا

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٠١/٣)

(٢)الشوكاني، فتح القدير (٤٢٩/١٦)

(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١٦/١٦)

حركة هيجانها وأزيزها، ولا أي صوت للنار، ولا حتى صوت اصطراخ أهلها الذين يحترقون فيها، فهو تأكيد لبعدهم عن النار، وعن كل منقصاتها، وجميع ما يزعجهم، وهذا من كمال سعادة أهل الجنة، أنهم مُبعَدُون عن المنقصات ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: الصوت والحس. والحسيس كما قال القرطبي رحمه الله تعالى: هو: حس النار وحركة لهبها، والحسيس والحس: الحركة(١) بل إن من سبقت لهم الحسنى في نعيم عظيم إلى أقصى ما تتمناه النفوس ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ فهم فيما تشتهيه أنفسهم من لذائذها ماكثون، لا ينتقلون ولا يزولون عنها، فهم منغمسون في أعلى درجات النعيم، إلى درجة أنه بمجرد اشتهاء النفس للشيء من الطيبات يتحقق لها ما اشتهت من غير بحث ولا عناء ولا طلب، فبمجرد ما يخطر في النفس ما تشتهي يأتي ويرد إليها حالاً. وهم في إقامة دائمة، وخلود لا ينقطع أبداً. اللهم إنا نسألك الجنة، وأن تجعلنا ممن سبقت لهم الحسنى.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بالمزيد عن سعادة أهل الجنة ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ لا يخيفهم هول يوم القيامة العظيم، لأن الملائكة تتلقاهم في استقبال وتبشير لهم، فتهنئهم وتبشرهم بأن هذا اليوم هو يومكم المخصوصون به، حيث تجدون كل ما يسركم، وهو الذي وعدكم الله تعالى به في الدنيا. فإن من سبقت لهم الحسنى يمتنع عليهم الوقوع في الحزن ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ ففي هذا إثبات أن هناك فزع عظيم يوم القيامة، وقد وصف الله تبارك وتعالى ذلك الفزع بأنه ﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ مما يفيد أنه ليس هناك أفزع منه، فهو الأكبر إفزاعاً للعباد، فليس هناك أفزع منه. والفزع هو اضطراب النفس، وذعرها وارتعاشها ورُعْبُهَا من شدة خوفها مما يقع بها. وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الثانية، وقد سماه الله تبارك وتعالى بما يحدث للنفس من الرعب والهلع ﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ لأن الإنسان هو المعني به، وهو يوم النفخة الثانية: قال الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة(٢) وقال ابن الجوزي أنها النفخة الأخيرة، وأنه: رواه العوفي عن ابن عباس، وبهذه النفخة يقوم الناس من قبورهم، ويدل على صحة هذا الوجه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٢٩)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٢٢)

قوله تعالى ﴿ وَتَتَلَقَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾[١] مما يدل على أن من سبقت لهم الحسنى لا يُفزعون يوم الفزع الأكبر. بل تتلقاهم الملائكة مبشرة لهم بيومهم السعيد.

فيوم الفزع الأكبر يكون من سبقت لهم الحسنى في أمان بفضل من ربهم تبارك وتعالى، حيث تستقبلهم الملائكة بالبشارة الطيبة ﴿ وَتَتَلَقَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ فتتلقاهم الملائكة في استقبال وتبشير لهم، وتهنئة بما هم مخصوصون به ذلك اليوم من الفوز العظيم، فتقول لهم بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ تذكير لهم بما وعدهم الله تعالى به في الدنيا من عظيم الثواب. بل عينوا ذلك اليوم تحديداً ﴿ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ﴾ ليس غيره، بل هو يومكم المخصوصون به، ويومكم الذي تفوزون به. ثم تذكيرهم بتعيين معرفتهم له في الدنيا ﴿ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ بما أخبركم ووعدكم الله تعالى به في الدنيا؛ في كتابه العظيم، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا البيان من الله تعالى ترغيب وشحذ لهمة المؤمنين إلى البقاء والثبات على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وأن يتزودوا بالكثير من الصالحات، وهو ترغيب لغيرهم بسلوك مسلكهم، وعدم تفويت هذا اليوم العظيم. وفيه كذلك بيان لما سيحدث قبل أن يحدث، وتصويره في الأذهان وكأنهم يشاهدونه ويعاينونه ويعيشونه. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا مع ممن سبقت لهم من ربهم الحسنى.

ثم يجلي ويوضح تبارك وتعالى ذلك اليوم بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ فإن ذلك اليوم يتم فيه طي السماء كما تُطوى الورقة، على ضخامتها وعظمتها، فإن الله تعالى يجعلها مطوية كالسجل، الذي هو عكس النشر، والسجل: الصحيفة والورقة التي يُكتب عليها. ولذلك سميت بالكتب ﴿ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه الصحيفة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والفراء، وابن قتيبة...والمعنى كما يُطوى السجل على ما فيه من كتاب. واللام ﴿ لِلْكُتُبِ ﴾ بمعنى (على) وقال بعض العلماء: المراد بالكتب، المكتوب، فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة، جعل السجل كأنه يطوي الكتاب[٢] ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ فكما بدأنا أول الخلق نعيده مرة أخرى.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٢/٥)

(٢) المرجع السابق (٢٧٣/٥)

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم، وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة، غرلاً، كذلك نعيدهم يوم القيامة...وخص أول الخلق بالذكر تصويراً للإيجاد عن العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ، لشمول الإمكان الذاتي لهما[١] فيعيد الله تعالى الخلق مثل ما ابتدأ تكوينه، ومن ذلك إعادة خلقهم بعد زوالهم، كما بدأهم أول مرة، فأعادهم عَزَّ وجل كما كانوا. ولا يمنع ولا يتعارض مع قول من قال: نُهلك كل شيء، كما كان أول مرة، رواه العوفي عن ابن عباس[٢] وذكره ابن جرير رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما: يُهلك كل شيء كما كان أول مرة[٣] يهلكه ثم يعيده، مما يفيد أن قدرة الله تعالى على الإعادة مثل قدرته على الابتداء، فلا شيء يعجزه سبحانه وتعالى، فمن كانت قدرته في الابتداء على وجه الكمال في كل شيء خلقه، فإن إعادته على ما كان عليه بعد فنائه عين الكمال من غير نقص.

ثم يخبر الله تعالى بأن ما أخبر به كائن لا محالة، ومجزوم به كما أخبر به عَزَّ وجل ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فقد وعدنا وعداً مِنَّا، فإنا منجزوه ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ إنَّا كنا فاعلين ما وعدناكم به أيها الناس. فإنَّا قادرون على فعل ما نشاء. مما يتطلب منكم أيها الناس الاستعداد لذلك اليوم الموعودون به.

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى بما قضى به من السُنَن التي لا تتغير ولا تتبدل ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ولقد كتبنا في الكتب السماوية

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٤٢٩-٤٣٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٧٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٣١)

المنزلة على المرسلين كالتوراة والإنجيل والقرآن ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ من بعد أن كتبناه في اللوح المحفوظ مسبقاً: أن أرض الجنة يوم القيامة تكون لعبادنا الذين اتصفوا بالصلاح. ومعنى ﴿ٱلزَّبُورِ﴾ هو الكتاب المكتوب. ومن ذلك: زَبَرْتُ. أي: كتبت. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الزبور والكتاب واحد. ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور. زبرتُ أي: كتبت، وجمعه زُبُر. وقال سعيد بن جبير: ﴿ٱلزَّبُورِ﴾ التوراة والإنجيل والقرآن[١] قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ولقد كتبنا في الكتب من بعد أم الكتاب الذي كتب الله كل ما هو كائن فيه قبل خلق السماوات والأرض. وذلك أن الزبور هو: الكتاب. يقال منه: زبرت الكتاب، وزَبَرْتُهُ إذا كتبته، وأن كل كتاب أنزله الله إلى نبي من أنبيائه فهو ذكر[٢] وبالتالي ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ أي: كتب الله تعالى في الكتب المنزلة على الأنبياء كالتوراة والإنجيل والقرآن ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: من بعد كتابته في أم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني بذلك أرض الجنة، إذ يرثها عبادي العاملون بطاعته سبحانه وتعالى[٣]

ومنهم من قال أن ذلك عام، يشمل أرض الدنيا وأرض الجنة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة[٤] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة، كما قال سعيد بن جبير، لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم، وهو قول ابن عباس ومجاهد، وغيرهما[٥] وعلق ابن عاشور رحمه الله تعالى بقوله: وإن كان المراد أرضاً من الدنيا، أي: مصيرها بيد عباد الله الصالحين، كانت هذه الآية مسوقة لوعد المؤمنين بميراث الأرض التي لقوا فيها الأذى، وهي أرض مكة وما حولها، فتكون بشارة بصلاح حالهم في الدنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة[٦] وفي هذه الدلالة جمع بين القولين، مما يفيد على عظيم عطاء الآية الكريمة لتستوعب جميع هذه المفاهيم الغير متعارضة، والتي يتفتح بها الذهن، ويظهر بها الإعجاز من وجه آخر في شموليتها للدارين من غير إعادة وتفصيل. فسبحان الله العظيم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣١/١١)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣٤/١٦)
(٣) المرجع السابق (٤٣٤/١٦)
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢١٠/٣)
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣١/١١)
(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٣٢/٧)

ثم ينوه تبارك وتعالى بالغاية مما أنزله في كتابه القرآن العظيم من الحق المبين، بأن فيه مواعظ وعِبَر ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ إن في هذا الذي أنزلناه عليكم أيها الناس كفاية لبلوغ غايتكم من الخير في الدنيا والآخرة. وقد بدأ البيان الكريم بالتوكيد للمشار إليه ﴿ إِنَّ ﴾ ثم خص القرآن الكريم باسم الإشارة ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا ﴾ عائدة على القرآن العظيم ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكفاية لبلوغ غايتكم وبغيتكم من المنفعة الموصلة لخير الدنيا والآخرة ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ أي: للمؤمنين الذين اتصفوا بالتصديق وإخلاص العبادة لله تعالى، فأطاعوه، بامتثالهم لما في القرآن من البلاغ الموصل للغاية المحمودة. وفي تخصيص العابدين ما يُظهر مبالغتهم في عبادة ربهم عَزَّ وجل، حتى صارت العبادة صفة لهم. كما أن في تخصيص العابدين على اعتبار أنهم المخصوصين بالانتفاع بآياته ومواعظه وقصصه وتشريعه، وأمره ونهيه. مما يدل على أن كلما بعد الإنسان عن عبادة الله تعالى قل انتفاعه بهدي القرآن ونفعه، وأنه كلما ازداد عبادة ازداد انتفاعاً به. فإن في التخصيص بيان للحقيقة الترابطية بين الانتفاع وبين العبادة في حياة الإنسان المؤمن. وفيه بيان بأن العبادة الصحيحة تقود إلى المزيد من الاهتداء بالقرآن الكريم. وأن أكثر الناس انتفاعاً أكثرهم عبادة. فإنها آية عظيمة تكشف عن حقيقة القرآن العظيمة، وعن حقيقة ومسار الانتفاع. وأهمية العبادة، وأثرها في انتفاع العابد بالقرآن الكريم.

ومن جميل البيان أن ورد ذكر القرآن الكريم باسم الإشارة ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا ﴾ فاسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ عائد على القرآن العظيم، وفي الإشارة إليه باسم الإشارة تعظيم ورفعة للقرآن العظيم، وبيان لمقامه ومنزلته، لأن تلك الأوصاف الجليلة العظيمة لا تنطبق إلا عليه وحده، فقد انحصرت تلك الأوصاف فيه، حتى أصبح لعلو مقامه في النفوس أنه لا يذهب الذهن إلا إليه بهذا النعت وهذا الوصف والوسم البليغ والمجيد الجليل. ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكفاية لبلوغ غايتكم وبغيتكم من المنفعة الموصلة لخير الدنيا والآخرة.

وبعد بيان حقيقة القرآن في الانتفاع، يوضح ويبين تبارك وتعالى حقيقة من أُنزل الله تعالى عليه القرآن، وهو رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن الغاية من بعثك أيها النبي بالرسالة إلى الناس هو من أجل أن نرحم الناس بما أرسلناك به، مما يدل على أن من آمن بك فقد نالته الرحمة ونجا، وكان من السعداء، وأما من لم يؤمن بك فإنه قد خاب وخسر، وكان شقياً في الدارين. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا ولآخرة، ومن

لم يؤمن بالله ورسوله، عُوفِي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وقيل: ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ههنا: من آمن وصدقه وأطاعه. وقال الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالمين، مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه وأدخله بالإيمان وبالعمل بما جاء به من عند الله، الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله[١] وهو رحمة للكافر من عدة أوجه، فهو رحمة له بعدل التعامل معه في السلم وفي الحرب، ومنع الظلم عنه. وهو مدفوع عنه عاجل البلاء. وبالتالي هو رحمة عليه من هذا الوجه كذلك. وهو رحمة كذلك حتى للبهائم، سواء عند قتلها، أو صيدها، أو في إطعامها، والأحاديث النبوية كثيرة في الرحمة، وقد استوفتها كتب الحديث والفقه بياناً، ومن ذلك المرأة التي حبست هرة، فكان عاقبتها النار، والتي دخلت الجنة في سقياها لكلب يلهث، والأمر بحد الشفرة عند ذبح الشاة وإراحة ذبحها، وغيرها مما استوفته وعالجته السنة النبوية المطهرة. على صاحبها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة والسلام.

ومن بلاغة البيان ودقائقه العظيمة أن عُطفت رسالته صلى الله عليه وسلم على من تقدم ذكرهم من الأنبياء والمرسلين في هذه السورة العظيمة الكريمة، وأيضاً خُتمت بها سورة الأنبياء، بما يشير إلى أنه خاتم الأنبياء والمرسلين. وتضمنت الْمُرسِل والْمُرسَل به والْمُرسَل إليهم، فالْمُرسِل هو الله تبارك وتعالى، والْمُرسَل به هي الرسالة والشريعة وعموم الدين، وكتابه القرآن العظيم، والْمُرسَل هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم. والمرسل إليهم هم الناس أجمعين. كما تضمنت في أسلوبها الحصر الذي حوته الآية في سياقها وتراكيب كلماتها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فحصرت وقصرت الْمُرسَل والرسالة، والْمُرسَل به في هدف وغاية واحدة وحصرية، وهي الرحمة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فليس في مضمون الرسالة إلا الرحمة، وكذلك ليس في شخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلا الرحمة، وقد انتفى من شخصه الكريم وهديه العظيم وأخلاقه الفاضلة كل صفة منافية للرحمة. وأن شرائع الدين التي جاءكم بها كلها رحمة، وليس فيها ما يشق عليكم. وأن الذي أرسله بهذا الهدى قد أراد بكم الرحمة، وهو الله سبحانه وتعالى. مما يدل على أن الله تعالى رحيم بكم، وأراد بكم الرحمة، فإن ربكم رحيم ودود. وجميع ذلك مدح وثناء على الله رب العالمين، ذلك بأنه رحمن رحيم، ويحب ويريد أن يرحم عباده، إلا من أبا ورفض رحمته، فالقرآن رحمة، والرسول صلى الله عليه وسلم رحمة، ودين الله تعالى رحمة، وشرعه رحمة، وأمره رحمة، ونهيه رحمة، فكل ما أتى ويأتي من عند الله تعالى فهو رحمة بالعباد. وبالتالي على العباد الاتصاف بالرحمة ولذلك ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٤٠-٤٤١)

قال (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء)[١] وقد أثبتت الآية الكريمة بعثت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه يحمل رسالة من ربه، وأن هذه الرسالة رحمة من الله تعالى، وبينت الآية الكريمة علة بعثه عليه الصلاة والسلام بأنها ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وكلمة ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ تشمل الإنس والجن، لأن الله تعالى بعث نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم للثقلين: الإنس والجن.

وتضمنت الآية الكريمة المدح والثناء على الله تبارك وتعالى بهذه الرحمة، وبهذا الرسول، وبإرادته الرحمة، وبما شرعه من الدين الذي كله رحمة، ومُوصل لسبيل الرحمة، وكذلك الثناء العطر لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ خصه بصفة الرحمة، وأن بعثته عليه الصلاة والسلام نعمة على الناس بما تضمنته من الرحمة. فمن أخذ بها فقد أخذ النعمة العظيمة، ومن تركها فقد خسر نعمة النجاة والنجاح والفلاح، فخسر الدنيا والآخرة.

ودلالة الرحمة التي بُعث بها صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ توضح أن الله تعالى أراد سعادة عباده في الدنيا والآخرة، ولم يرد تعجيزهم بها، وتكليفهم بما لا يطيقون، بل يَسَّر عليهم حتى العبادات، فإن منهج دينه عَزَّ وجل يحقق للناس السعادة في الدنيا، ويوصلهم إلى سعادة الآخرة، ويُبعدهم عن شقاء الدنيا وعذاب الآخرة. فشريعة الله تعالى ضابطة لسلوك الفرد، وسلوك الجماعة، في علاقاتهم المختلفة على جميع المستويات، ومع جميع جوانب وفروع الحياة المختلفة والمتعددة.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما يقوله للناس توضيحاً وتأكيداً وبياناً لهم ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فجميع ما يوحيه الله تعالى إليَّ هو قائم على دعوتكم إلى توحيده عَزَّ وجل ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أن جميع الوحي الذي يوحيه الله تبارك وتعالى إليَّ من قضايا الإيمان والتوحيد والعبادات والتشريعات والأوامر والنواهي هو بيان وتأكيد لوحدانية الله تعالى، لا شريك له، مما يستوجب الإخلاص له عَزَّ وجل ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فليس هناك إله غيره عَزَّ وجل، فانتفى كل معبود غيره تبارك وتعالى. وتشهد بذلك مفردات الإيمان ودلالات العبادات قاطعة: بأن الله تعالى واحد لا شريك له. بل حصرت وقصرت الآية الكريمة بأسلوب مبناها فضلاً عن معناها، قصرت الألوهية على الله تعالى وحده لا شريك له ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فقصرت أداة الحصر ﴿أَنَّمَآ﴾ جناب ومقام الألوهية، الذي هو ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾ في وحدانيته تبارك

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود، برقم (٤٩٤١)

وتعالى بأنه ﴿ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وقبلها قصرت ﴿ إِنَّمَا ﴾ الْمُوحَى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقصرته على المقصور الثاني، وهو توحيد الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وفي هذا غاية البلاغة البيانية في بناء المقصور الثاني على الأول، بحيث يتوحد به المطلوب والمراد من الوحي الرباني، وينتفي ويمتنع به أي فهم مخالف للمقصود والبيان. كما أن في هذا غاية المعالجة، وغاية الإثبات لتوحيد الله تعالى، وإظهار وإبراز أهميته، وعلو قدره وشأنه.

والمتأمل يجد أن جميع ما خلق الله تعالى يدل على وحدانيته تبارك وتعالى، كما أن القرآن العظيم في إعجازه يدل على أن مصدره هو الواحد الأحد، وكذلك مضمون الشريعة دالة على أنه لا يمكن أن يأتي ذلك التفصيل الدقيق إلا من خالق الكون وحده لا شريك له. ثم يلي هذا الإثبات سؤال تقريري لجميع العباد بأنه طالما أن الأمر كذلك ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أليس من واجبكم إذاً توحيد ربكم عَزَّ وجل، والامتثال لما جاءكم به من الحق ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فهل أنتم مستسلمون إذاً ومنقادون لربكم جَلَّ جلاله، بأن تُفْرِدُوه بالعبادة، وتخلصوا له التوحيد. فإن جملة الختام للآية الكريمة ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تستثير العقل بالنتيجة والمحصلة التي يلزم أن تكون منكم، إذ أنه سؤال تقريري، يقرر به تبارك وتعالى أنكم أيها الناس إذا تدبرتم ما أُوحَى به ربكم على نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه حتماً ستؤمنون لقوة ما فيه من الحجة والبرهان على وحدانية الله تعالى.

فإن الذي يلزمكم هو التصديق الكامل ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فطالما أن الأمر كذلك! أليس من واجبكم إذاً توحيد ربكم سبحانه وتعالى والامتثال لما جاءكم به من الحق؟ إنه أسلوب تقريري عظيم الدلالة، وعظيم البناء، وعظيم الطرح. ليعطي منهجية علمية في كيفية الحوار وتقرير الحقائق. كما يبين أن حجج الله تعالى قائمة على البرهان والدليل، وليست على الأمر من غير إصلاح الوعي والفهم لدى الْمُخَاطَب.

فبعد تقرير عقول العباد والمخاطبين عموماً بتلك الحجج والدلالات العظيمة على وحدانيته سبحانه وتعالى، ونفي الشرك، يُوجه تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يتخذه حيال من أعرض وامتنع ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ ففي حالة إعراضهم عما دعوتهم إليه، وبينته لهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي: فإن امتنع الْمُخَاطَبُون هؤلاء عما سبق بيانه وتقريره، فلم يسلموا لله رب العالمين، فقل لهم ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ فقلهم: قد أخبرتكم بالحقيقة والعقوبة، والمفارقة بيننا وبينكم ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي: بيان واضح يستوي الوضوح فيه بيننا وبينكم. ومعنى:

﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أي: أعلمتكم وأخبرتكم بالحقيقة والعقوبة والمفارقة بيننا، الدالة على البراءة منكم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم على بيان واضح يستوي الوضوح فيه بيننا وبينكم، بأننا وإياكم على افتراق، فلا اتفاق ولا صلح بيننا وبينكم، ولا ارتباط يربطنا بكم، لاختلافكم عنا، ونفوركم عن دين الله تعالى الواضح الذي أتيتكم به، وإعراضكم عنه. مما يفيد البراءة من الشرك والمشركين، وأنه لا اتفاق بين ملة الشرك، ودين الله تعالى القائم على التوحيد. قال الزجاج رحمه الله تعالى: المعنى أعلمتكم بما يوحى إليَّ على استواء في العلم به، ولم أُظهر لأحد شيئاً كتمته عن غيره[1] مما يبين وضوح الدين، ووضوح الرسالة، وخلوها من الدس، والإخفاء، بل إنها واضحة جلية لجميع من بُعِث فيهم صلى الله عليه وسلم ولجميع الناس إلى يوم القيامة، وقد أظهرها عليه الصلاة والسلام إظهاراً واضحاً للجميع، وفي هذا تزكية من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأمانته ونزاهته، وحرصه، وأنه لا دسائس في الدين، فهو واضح كوضوح الشمس للجميع. مما يبين أن هذا الدين لا يعتمد على الخيانة والدسائس، بل إنه قائم على الوضوح للجميع بتشريعه وأحكامه وآدابه وأخلاقه.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وإنما عني بذلك قومَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش[2] ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن ينذر قومه ويحذرهم ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ فنفى البيان العلم ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي: ولا أعلم، لأن **(إن)** نافية، بمعنى **(ما)** أي: وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ فلا أعلم عما وعد الله تعالى به من العقوبة لكم، أهو عاجل قريب، أم آجل بعيد، فقد استأثر الله تعالى به. فقد يكون هو ما حصل لهم في بدر من القتل، وغيرها، وقد يكون يوم القيامة، وقد يكون ذلك جميعاً، لتستوفي عموم الإنذار والتهديد الذي يُوجب عليهم ترك عنادهم. وهذا الإخفاء هو من إرادة الرحمة بهم، بأن يخافوا ويحذروا من وقوع العذاب بهم في أي لحظة، فَيبادروا إلى الإسلام. وكل إنسان له ما اكتسب. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، بأنه ما أراد بهم إلا الخير، وأنه ينذرهم ويرهبهم ويرغبهم، ويضرب لهم الأمثال، وينوع لهم في الحجج والدلالات والبراهين من أجل أن يهتدوا، فيرحمهم بدخولهم في دينه تبارك وتعالى.

ثم يقر الله تبارك وتعالى كمال علمه، وإحاطته بعباده، وأنها إحاطة تستوفي ظاهرهم وباطنهم، وما يعلنون وما يسرون في نفوسهم ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ فإن الله ربكم يعلم أيها الناس، وأيها الْمُخَاطَبُون ما تجهرون به من القول، وما تعلنونه بإظهاره بينكم كما يعلم ما تُسرُّون

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٢/١١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٤٢/١٦)

به، وتضمرونه في قلوبكم، متكتمين عليه، فتخفونه وتضمرونه في صدوركم من غير إعلان وإفصاح، فتكتمونه في أنفسكم وضمائركم. فإن من يعلم مكنونات الأنفس، وما تضمره القلوب، ويعلم أدق الظواهر من الأشياء الظاهرة، ويعلم مكنونات النفوس، وإرادتها الخفية والمضمرة في القلوب، فإنه لا تخفى عليه المكائد العملية، فانتبهوا، فإنه يعلمها، فاحذروه. وفي هذا تهديد ووعيد وتوعد لأهل الكفر بعلم الله تعالى بكيدهم للإسلام والمسلمين، والذي قد يخفى على عباده المؤمنين، فإنه لا يخفى على الله تعالى، وأنه لهم بالمرصاد، فانتبهوا من خفايا أعمالكم.

كما أن في استحضار هذه الآية الكريمة في النفس المؤمنة يعزز عندها مراقبة الله تعالى ظاهراً وباطناً، علانية وسراً. وهي علاج لشأن المؤمن ولتصرفاته وسلوكه كله، فإن كان في خفية من الناس، قال لنفسه ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ وإن حدثته نفسه بشيء قال ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ فاستغفر وأقلع، وإن أراد أن يمكر بأحد قال لنفسه ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ فإنها آية علاج، وآية ضبط للسلوك أينما كان العبد، ومع من كان. كما أنها آية واعظة يعظ الإنسان بها غيره بحسب مواطن الوعظ وحالاته. اللهم اجعلنا ممن يستحضرها، ويمتنع بها عن كل شر، ويستحضرها ويَقْدِمُ بها على كل خير. اللهم اجعلها صلاحاً لقلوبنا ولأخلاقنا وعباداتنا وشأننا كله.

ويزداد التأكيد على أن علم ما سينزل بهم من عقاب راجع إلى الله عَزَّ وجل ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ لقد بينت الآية الكريمة أنه سبحانه وتعالى وجه نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يقول لقومه ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي﴾ أي: لا أدري، ولا أعلم إن كان العذاب الذي تستعجلونه بسبب إعراضكم عما جئتكم به عن الله عَزَّ وجل هو مزيد ابتلاء واختبار لكم، فيؤجله إلى أجل مسمى عنده، لتتمتعوا بحياتكم القليلة حتى انقضاء المدة التي قضاها لكم ربكم في علمه. فيكل العلم إلى الله تعالى، وينفي عن نفسه صلى الله عليه وسلم معرفته بموعد العذاب، مع التوضيح والبيان لهم أنه ربما يكون في تأخير العذاب فتنة لهم واختبار ﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ فربما يكون الإمهال ابتلاء واختبار لكم، ليرى الله منكم ما أنتم صانعون، أتستمرون في كفركم؟ أم ماذا سيكون منكم، فإن في الإمهال من الله تعالى مع استمرار التولي منكم هو فتنة واختبار إلى الوقت المحدد في علم الله عَزَّ وجل، وهو قوله تبارك وتعالى ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ وتمتعون بحياتكم القليلة حتى انقضاء المدة التي قضاها الله تعالى في علمه، وذلك استدراج لكم إلى الوقت المقدر لكم. بما يفيد التحذير والإنذار والترقب. وعدم الغرور بالزمن وبفتنة الحياة الدنيا.

ويبين قوله عَزَّ وجل ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أمرين: الأول: الأجل، والثاني: موعد وقوع العذاب، فإنه إلى أجل مسمى عند الله تعالى، فهو أمر منتظر. فلا أعلم كيفيته ولا نوعه، فجملة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ تحمل معنى وقت أجالهم، وأيضاً تحمل وقت وقوع العذاب، فلا أعلم عن ذلك شيئاً. فلم يَظْهَر عليه الصلاة والسلام أمامهم إلا بما أمره وبينه له ربه تبارك وتعالى، مما يدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم. وأن ذلك منقبة وثناء عليه صلى الله عليه وسلم، بأنه لا يمتدح نفسه بما ليس له به حق. وأنه صادق فيما يقول، ولا يدَّعي علم الغيب، ولا معرفة ما لا يعرفه، وأنه رسول أمين كريم. فلا أعلم إن كان العذاب الذي تستعجلونه بسبب إعراضكم عما جئتكم به عن الله عَزَّ وجل هو مزيد ابتلاء واختبار لكم، فيؤجله إلى أجل مسمى عنده، فتمتعوا بحياتكم القليلة حتى انقضاء المدة التي قضاها لكم ربكم في علمه، ثم يحل بكم ما أراد لكم ربكم عَزَّ وجل من العذاب.

وتفيد كلمة ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ في هذا السياق الكريم: التوقع المخيف من العذاب غير المعروف وقته وقوته ونوعه، لإثارة الإشفاق على أنفسهم مما هم موعودون به من العذاب. وجملة ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ تذكير لهم بأنه مهما طال استمتاعكم بما أنتم فيه فإنه إلى حين، إلى وقت محدد، وليس ممتداً إلى ما لا نهية له، فاحذروا من المتاع القليل الزائل، الذي يفوت به عليكم المتاع الدائم، فخذوا بمتاع الآخرة الذي لا ينقطع. فإن في ذلك تحريك لقلوبهم وعقولهم نحو الحقيقة، وما يجب عليهم من اتباع الحق. ومن رحمة الله تعالى أن في تجهيل موعد العذاب ترهيب وتخويف، واستدعاء لهم بأن يذعنوا إلى ربهم جَلَّ في علاه، وأن يطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الأنبياء بالذي طلبه النبي صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل فيما يخص قومه الذين كذبوه ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فطلب عليه الصلاة والسلام من ربه تبارك وتعالى أن يحق الحق مع قومه، دون أن يجعل عداوتهم له مثار حقد، بأن يطلب من ربه تبارك وتعالى غير الحق معهم ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ قال نبيهم ورسولهم محمد صلى الله عليه وسلم متضرعاً لله تعالى ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ ربِّ افصل بيننا وبين قومنا الذين كذبوا بما جئتهم به من البينات والحجج، فكذبوني، أن تحكم بيننا بما يستحق كل واحد منَّا، فحصر رغبته صلى الله عليه وسلم في إقامة العدل بينه وبين قومه من غير زيادة ولا تعدي. إذ لم يعين مبتغاه ومراده عليه الصلاة والسلام في نوع محدد من الحكم، بل قصره في إحقاق الحق من ربه تبارك وتعالى ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا عين الأدب مع ربه سبحانه وتعالى، وكذلك عين الإنصاف مع قومه المكذبين. وفي هذا تفويض الأمر إلى الله تعالى، إذ هو أعدل العادلين عَزَّ وجل.

وقد تضمن هذا الطلب النبوي الكريم تفويض وتقرير اختيار زمن الفصل، وكيفيته ونوعه أن يكون لله تعالى، فلم يطلب التعجيل بهم، ولا نوع الهلاك، فهو أحكم الحاكمين، وخير من يدبر الأمر ويمضيه. وبالرغم من معرفته صلى الله عليه وسلم أنه على الحق المبين إلا أنه يقول ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنه يعلم أنه على حق، وأن حكم الله تعالى هو عدل الفصل بين الحق والباطل. فعن قتادة رحمه الله تعالى: أن النبي صلى الله عليه وسلم: كان إذا شهد قتالاً قال ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾[1] ليقينه بأنه على حق، وأن من عاداه على باطل، وأن الله ينصر الحق على الباطل، وأنه أعدل الحاكمين.

ويختم طلبه ودعاءه صلى الله عليه وسلم بما يناسب المقام من عظيم الإجلال والتقديس والتنزيه لله سبحانه وتعالى، والخضوع والالتجاء إليه عَزَّ في علاه ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ واستعين واستغيث بالرحمن على ما تصفون به ربكم من الشريك والكفر والتكذيب، وما أنتم عليه من العناد والمكابرة بالرحمن الرحيم، فإن الله تعالى هو الذي يستعين به الصادقون فيعينهم، وينجز لهم شأنهم، ويفصل بينهم وبين من عاداهم بالحق وعين العدل المبين. فينصرهم على من عاداهم، وكذب بهم.

ومن جميل السياق أنه بيان تقريري، يقرر به شنيع وقبح صنيعهم من الشرك بالله تعالى، ويقرر به عدل ووضوح ما جاء به، ويقرر به قوة الله تعالى ونصره، وإعانته للمظلوم على الظالم، وأن الله تعالى سوف ينصره عليهم، ويخذلهم، وبما يحمل لهم الإنذار ممن استعان به، وهو الله تبارك وتعالى. ويقرر بجملة ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ صفة الربوبية، بأنه لا رب ولا إله يُعبد سوى الله تبارك وتعالى، ويضيف في دلالة ﴿وَرَبُّنَا﴾ المؤمنين معه إلى ربهم عَزَّ وجل، لأنها وردت بصيغة الجمع ﴿وَرَبُّنَا﴾ لإيضاح المفارقة بين الفريقين، وأنهم لا يقيمون الربوبية على أصلها وحقيقتها، بل يشركون مع ربهم ما لا يليق بمقامه وسلطانه وحقيقته، وفيه كذلك تعظيم من يستعينون به عليهم. ومن وجه آخر يشمل كذلك لفظ ﴿وَرَبُّنَا﴾ الجميع ربنا وربكم أيها المشركون، وهذه من رحابة النص في القرآن الكريم التي تتظافر فيه الدلالات، ولا تتعارض ولا تتصادم. فيعطي النص الكريم كلا الوجهين من الدلالة، ليتسع معناها ورحابة فائدتها، وعطائها التفسيري لتلك الدلالتين. وهذا من الإعجاز البلاغي لكتاب ربنا تبارك وتعالى.

ويقرر بذلك رحمة الله تعالى بعباده ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ حيث يُظهر اسم الرحمن المناسب لهذا المقام. فإن من أسمائه جَلَّ جلاله: الرحمن، ومن صفاته تبارك وتعالى الرحمة، ولولا رحمته لعجل لكم الهلاك

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٤٤)

الساعة، ولكن لرحمته يؤخره لكم، لعلكم تتوبون وترجعون عن غيكم وكفركم. كما أن في ذكر الرحمن مع ما سبق من قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ التأكيد على أن منهج هذا الدين قائم في التعامل على الرحمة، وإلا لعجل لكم العذاب، فلا تعتقدوا بما أنتم عليه من الفسحة أنكم على حق.

ويقرر تحديد الذي يجب أن يستعين به العباد، وهو الله وحده لا شريك له ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ ﴾ فليس هناك من يُستعان به غير الله جَلَّ جلاله، وبالتالي فإن عونه هو عون القوة والنصر، وأن الهزيمة والذلة للظلمة الكافرين، فإنها متحققة فيهم، لأننا نستعين بالقوي الجبار. ثم يبين علة الاستعانة في تحقيق النصر ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فعلة الاستعانة بالله عَزَّ وجل عليكم هو ما تصفونه به جَلَّ شأنه، من الشرك، وما تتقربون به للأصنام مما هو حق لله تعالى، من الذبح لها، والرجاء والخوف، واستعاذتكم واستعانتكم بها من دون الله تعالى. وترككم لربكم وخالقكم. ووصفكم لرسوله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، وما تقولون وتتهمونه به من أنه ساحر، وكاهن، ومجنون، وما لا يليق به صلى الله عليه وسلم. وكذلك ما تعادون به صحابته رضي الله عنهم، وما تصفونهم به: بأن الذين اتبعوه هم الضعفاء والفقراء.

وبهذه الخاتمة الرائعة والعظيمة والمجيدة يختم الله تبارك وتعالى سورة الأنبياء. اللهم اجمعنا بهم ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين أجمعين، في أعلى عليين برحمتك يا أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، يا رحمن الدنيا والدين.

تم بحمد الله إتمام سورة الأنبياء، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.